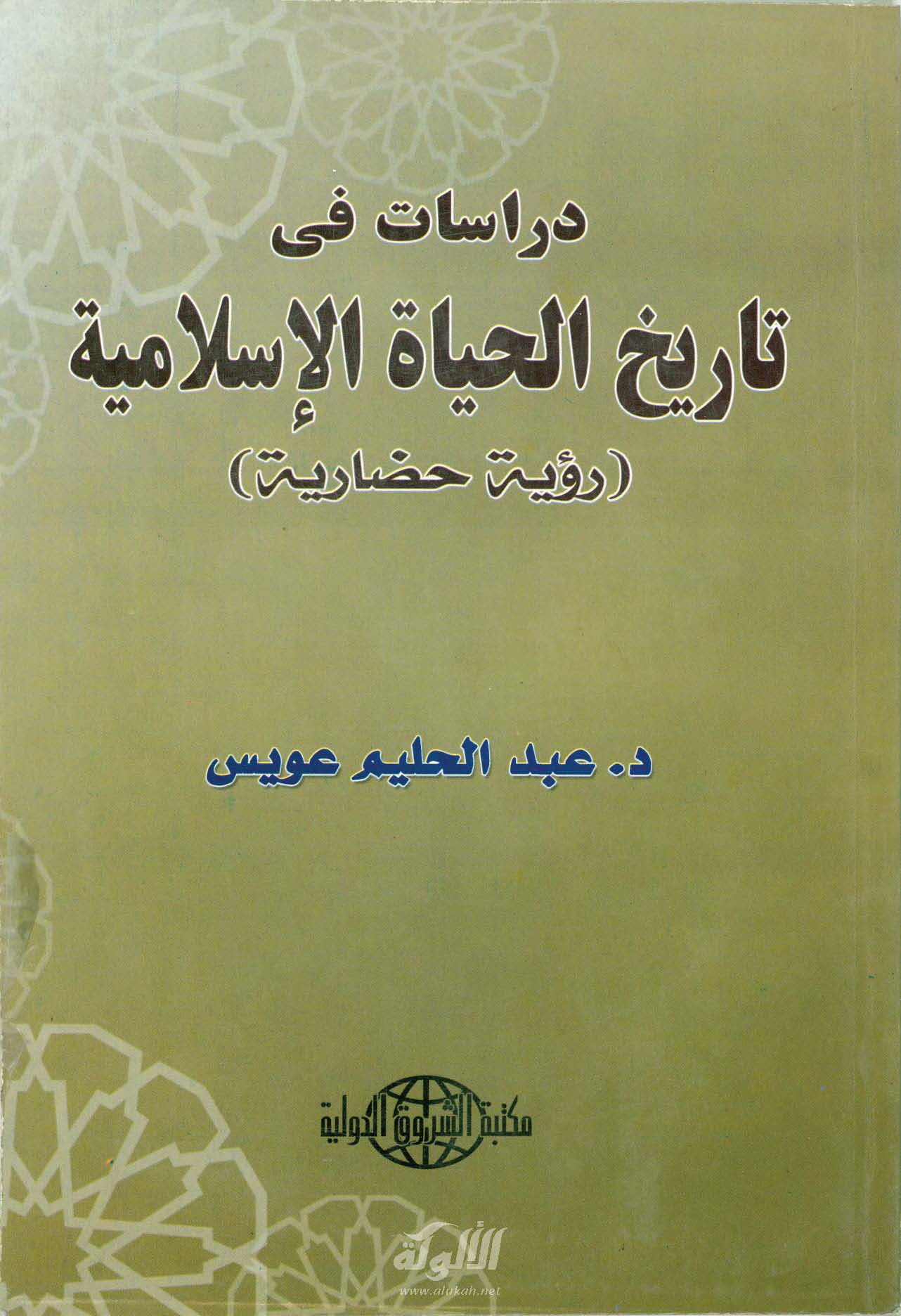
****

**دراسات في تاريخ الحياة الإسلامية**

**(رؤية حضارية)**

**د. عبد الحليم عويس**

الطبعة الأولى

1430هـ- مارس 2009م

مكتبة الشروق الدولية

**دراسات في تاريخ الحياة الإسلامية**

**(رؤية حضارية)**

**د. عبد الحليم عويس**

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطني لدار الكتب المصرية

الفهرسة أثناء النشر

(بطاقة الفهرسة)

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثاثق القومية (إدارة الشئون الفنية)

عويس، عبد الحليم.

دراسات في تاريخ الحياة الإسلامية: (رؤية حضارية)/ عبد الحليم عويس.

ط1.- القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2009م.

152ص؛17\*24سم.

تدمك 1-69-6278-977-978

1- التاريخ الإسلامي.

أ-العنوان. 953

رقم الإيداع 7225/2009م

الترقيم الدولي 1-69-6278-977-978-I.SBN.

## إهداء

إلى معالي أستاذنا الكبير الشيخ عبد العزيز بن عبد الله السالم... المفكر والكاتب والوزير والمسؤول السعودي لعشرات السنين..

الرجل الذي أحببته في الله... وأحبه كل المخلصين لدينهم وحضارتهم ممن اقتربوا منه أو قرءوا له...

لقد كان دائمًا آية من آيات الله في التواضع والزهد والارتفاع فوق كل المناصب.

لقد التقينا معًا على حب شيخنا الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي. وكان من أعظم من رثوه... وعاشوا أوفياء له...

ولثلاثة عقود بقيت علاقتي به... فكنت أثناء عملي في المملكة وبعده أشعر برائحته العطرة - وأتحدث عنه على أنه الرجل الذي عاش مثاليًا فوق البترول في عصر البترول... وآثر الحياة المتواضعة بعيدًا عن كل مظاهر الترف.

فإليه... تقديرًا لعلاقة روحية أعتز بها وأتفيأ ظلال سموها..

أكتب هذا الإهداء.. سائلًا الله أن يحفظه للمملكة والعروبة والإسلام.

محبه

د. عبد الحليم عويس

القاهرة: في غرة المحرم 1430هـ

## مقدمة

حمدًا لله وشكرًا له؛ على آلائه ونعمه...

ومهما تكن الظروف التي تحيط بأمتنا منذ قرون؛ سواء كانت خارجية أو داخلية، فإن النظر الفاحص؛ يدرك أن مسيرة حضارتنا تتقدم يومًا بعد يوم.

لقد كلت عقول أعدائنا؛ من التخطيط المدمر لنا، ولقد نجحوا في إيلامنا والنيل منا؛ لكن كثيرًا ما رجع كيدهم عليهم وبالًا، بعد أن أنفقوا الأموال والأوقات، وصدق الله -سبحانه- إذ يقول: ((ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين)) [فاطر:43].

* ولقد كلت سواعد أعدائنا؛ من ضربنا بأحدث الأسلحة، سواء في فلسطين، أو في العراق، أو في أفغانستان، أو في لبنان...
* وقد أنفقوا من دمائهم، ومن أموالهم، الكثير... وصبرنا وصمدنا... وأصبح جليًا؛ أن القوى المستكبرة في الأرض فشلت في الصد عن سبيل الله... وحق عليها غضب الله في الدنيا والآخرة، وكذلك غضب الإنسانية واستنكارها... وصدق فيها قوله تعالى: ((إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون)) [الأنفال: 36].

\*\*\*

* ومع هذه الظروف الخارجية؛ التي لم تعدم أن تجد عونًا قويًا من قوى الارتداد الداخلي، الممثلة في اللادينيين والشيوعيين والحداثيين؛ الذين ترتبط قواعد مفاهيمهم الفكرية، بقلاع الفكر الاستشراقي والتغريبي... مع هذه الظروف؛ فإن مسيرة تقدمنا في ازدهار كمي وكيفي... ولعل أعداءنا يدركون هذا أكثر منا... فعقيدة التوحيد الصحيحة (نقلًا) والمقبولة (عقلًا) تكتسح العقائد الوثنية؛ التي تعدد الآلهة والأقاليم... وشريعة التسامح الصالحة لكل زمان ومكان؛ تثبت جدارتها -وحدها- بصياغة حياة الناس؛ لأنها -وحدها- التي تهدي للتي هي أقوم، ولأنها ليست اختراع عقول متحيزة عنصرية، أو أخرى محدودة بالزمان والتراب والخلفية الثقافية؛ بل هي صادرة من الله خالق الإنسان والكون؛ الذي يعلم الظاهر والباطن من الإنسان: ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)) [الملك: 14]، وبالتالي يشرع له التشريع المنسجم مع فطرته... وها هي البشرية -بعيدًا عن شريعة الله- تصل إلى نهاية الطريق المسدود؛ حين تعقد مؤتمرات مشبوهة، تحت اسم الحريات الشخصية تنتهي فيها إلى إقرار زواج الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى (الزواج المثلي)، وهو المستوى الذي لم تصل إلى دركه الحيوانات، إنه... مستوى ((أسفل سافلين))
* فلا طريق أمام الإنسانية -كما نرى- ولا أمام المسلمين -من باب أولى- إلا طريق الإسلام...

وها هي مسيرة التاريخ وقوانينه؛ التي يجب أن يقرأها المسلمون كما ينبغي أن تقرأ، وتثبت ذلك...

ولقد أصبح واجبًا علينا أن نعيد قراءة كتاب ربنا، وسنة نبيه (عليه السلام)، وحركة تاريخنا الإسلامي... بل وحركة التاريخ الإنساني؛ في ضوء علم السنن الربانية، وتفسير التاريخ؛ تفسيرًا إسلاميًا، ومنطلقًا من حديث القرآن، المستفيض عن قصص الأنبياء، وقصص الأمم السابقة، بدءًا من موقف إبليس من آدم وتفضيل الله لآدم عليه السلام... لأنه أعطاه العلم والإرادة: ((وعلم آدم الأسماء كلها)) [البقرة: 31]... وصولًا إلى ما نفقهه من سيرة محمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم التي قدمت لنا دروسًا في التعامل مع كل ظروف الحياة، بمثالية وواقعية في سياق واحد...

* لقد عمد كثيرون إلى تقديم رؤى منحرفة؛ في تفسير تاريخنا الإسلامي، ووقفوا في رؤية حركة تاريخنا؛ عند مستوى الحياة السياسية والعسكرية، وأغفلوا عن عمد -أو جهل- شتى مستويات الحياة؛ التي صنعتها الحياة الاجتماعية، والاقتصادية والإسلامية، أو بإيجاز حركة (صناعة الحضارة) بواسطة الأمة؛ التي اصطفاها الله، وجعلها خير أمة...

وتأتي هذه البحوث -في هذا الكتاب- لتقدم صورًا من جوانب حركة حضارتنا؛ التي ظلمها الجاهلون والمتآمرون.

ومن هذه الرؤى المتكاملة؛ سوف ندرك عظمة هذه الحضارة.. ومستويات عطائها العقلي والقيمي والإنساني؛ عبر عشرة قرون أو أكثر.. ومن ثم نتقدم خطوة في إزالة الأتربة والمظالم؛ التي وقعت على هذا التاريخ..

ومع ذلك لا يجوز لنا أن ننسى أنه تاريخ بشر يعتورهم الضعف والنقص، ويبذلون المحاولات للوصول إلى الحق فيصيبون ويخطئون؛ لكنهم يرتبطون بثوابت... ويؤمنون بأن تاريخهم العظيم ليس تاريخ ملائكة أو معصومين، وإنما هو تاريخ أفضل البشر... ومن الله التوفيق والسداد.

\*\*\*

## نهر التاريخ... رؤية إسلامية

تاريخ البشرية ماض وحاضر واستشراف للمستقبل... والتخوم الفاصلة بين هذه الأدوار تكاد تكون ذائبة؛ والماضي يعيش فينا ولا نستطيع إنكاره، والمستقبل فينا كالماضي سواء بسواء... إنها أضلاع الزمان الثلاثة التي لا تنفصل....

وعندما يتم الضغط على الماضي وحده تصاب الأمة بمرض الغياب التاريخي... كما أن الضغط على الحاضر -دون وعي بالماضي والمستقبل- غياب عن الذات، مغامرة بالحضارة كلها؛ في رحلة ضياع لسفينة بعدت عن معالمها ومرافئها الثابتة...!!

\*\*\*

كل الأحجار في التاريخ شواهد ناطقة تحكي قصة قوم كانوا هنا وصنعوا شيئًا... ولم توجد بعد أحجار صامتة.. ومن العبث أن نحاول إخراس أصوات الماضي التي تخاطب عقولنا ووعينا التاريخي الفطري الذي يقول لنا: إننا جنس خاص.. إنسان تاريخي... كائن يموت أفراده، وتموت بعض شرائحه... لكنه باق إلى اللحظة الحاسمة... القارعة!!

\*\*\*

في أحقاب متفاوتة من التاريخ الإنساني وضعت العناية الإلهية شارات ثابتة تأخذ بيد كل حضارة تريد الإقلاع من جديد نحو الإنسانية النقية...

قدم لنا أبونا آدم أول شارة حين أخطأ وتاب... فإدراك الخطيئة والإقلاع عنها خاصة إنسانية متفردة...

وقدم هابيل الشارة الثانية حين رفض أن يكون القاتل ورضي أن يكون المقتول... في سبيل المبدأ...

وقدم كل نبي شارة أخرى هي خلاصة حياته ودعوته... إن هذه الشارات التي بدأت بآدم ثم نوح، وإبراهيم... وانتهت بمحمد (عليهم السلام) هي معالم الهدى في التاريخ... وكلها ذات جوهر واحد ((أن اعبدوا الله واتقوه)) [نوح: 3]، والخلاف بينها في التفاصيل الملائمة لحياة الإنسان عبر التاريخ...

* والانحراف في تاريخ الإنسانية جاء من ابتعادها عن هؤلاء الهداة العظماء... إنها اصطرعت بعيدًا عنهم... وتصارعت باسمهم بعيدًا عن الحوار الباحث عن الحق.... ودفعت أجيالًا كاملة لرفضهم... واخترعت النظريات ضدهم...
* ولن يعود التاريخ إنسانيًا إلا إذا انصهر العقل في بوتقة الإنسانية، ليكون عقل إنسان... لا عقل شيطان!!

أجل: إن في تيار التاريخ تصاميم سابقة وثابتة... لكنها لا تحول -ولم تحل- دون الإبداع... إنها معالم ثابتة دائمًا حتى لا تتوه الإنسانية في الصحراء!!

في نهر التاريخ يتدفق الماضي موصولًا بالحاضر والمستقبل... وتظهر القداسة في بعض العصور كما تظهر النجوم العالية التي يسترشد بها الملاحون في الليالي الطويلة المظلمة... فليست البشرية بمجموعها مقدسة، كما أن هذه الإنسانية ليست مجموعة حيوانات مفترسة... إنها هذا وذاك... إنها أصلًا... ((في أحسن تقويم)).. لكنها في أكثر مراحل التاريخ: في ((أسفل سافلين)).. وستتبادل البشرية هذه الأدوار المتعاقبة إلى يوم القيامة...

وعندما يتآمر بعض المنسوبين إلى الإنسانية فيحاولون تحطيم فترات القداسة والمثال، فإنهم يسعون -بوعي أو بغير وعي- لقيادة الإنسانية إلى نسبية كاملة، وإلى ليل طويل معتم؛ لا نجوم فيه (!!) وستغرق السفينة لا محالة... فالعقل والبصر لا يغنيان عن إشارات البصيرة الثابتة، وكواكب الحقيقة!!

* كانت البشرية لا شيء... عدمًا لا ذكر له... أحيتها العناية الإلهية... وسوف تميتها بعد سلسلة حضارات متصارعة.... ثم تحييها ليوم الحساب الأخير... فهكذا كانت لها بداية... وكان لها سياق وجود حي هو: هذا التاريخ وهذه الحضارات.. ثم سيكون لها رجعة إلى الله للحساب النهائي!!

لا استمرار أبدي... بل هي رحلة مغلقة... لها بداية ونهاية... بطلها الإنسانية... ولن تكون هذه الرحلة عبثًا باطلًا...

فالعناية الإلهية لا تخلق للهو ولا للعب... وحاشاها... إنها أعظم من أن تجعلنا دمى، أو قطع شطرنج... إن لنا وجودًا بقدر مسؤوليتنا... إننا مكلفون بمهمة خالدة...

((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين \* لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين\* بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)) [الأنبياء: 16- 18]. والحق ((رسالة الأنبياء))... حداة القافلة الإنسانية وهداتها....

وفي النهاية تنتهي فصول الكتاب والملحمة ((يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين)) [الأنبياء: 104].

فالغاية الإنسانية المحتومة... والمصير المحكوم بأعمال الناس، وبفاعلية الإنسان الإيجابية الصالحة في التاريخ... ((فلا كفران لسعيه)) [الأنبياء: 94]، لكن إذا انتهت دورة تاريخية وأغلق الستار؛ فمحال أن يعود أصحابها قبل يوم البعث: ((وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون)) [الأنبياء:95].

إنهم مسؤولون... لقد كانوا أحرارًا، وكانت لديهم شارات الطريق وشروط الصلاحية ومؤهلات البقاء... لكنهم صدفوا عن كل ذلك واعتمدوا على أبصارهم المحدودة؛ وعقولهم المكبلة بإطار وعي الزمان والمكان، وخبرة الجيل الواحد... فاستحقوا الموت...

لقد استمرءوا أن يكونوا مستهلكين في التاريخ.. مجرد موضوع من موضوعاته.... ولم يرتفعوا إلى مستوى خلافة الله في صناعة الحضارة، وعمارة العالم وتسخير كونه... لقد عاشوا في دائرة الذات والمطالب الجسدية، ولم يهتموا بالمطالب الروحية، ولا بغايات الوجود...

\*\*\*

نعم: إن نهر الزمان متدفق موصول لا تكاد تنفصل فيه لحظات الماضي عن لحظات الحاضر عن المستقبل، لكن ذلك لا يعني أن الزمان لا يمكن تقسيمه إلى ماض وحاضر ومستقبل، وأن هذا التقسيم له وجود في الواقع؛ وهو وجود شعور ووعي وحياة والغاية داخلية وخارجية معًا، فكل كائن حي له غاية خاصة به تتعاون جميع أجزائه من أجل تحقيقها إنها غايته الداخلية التي تنسجم مع الغاية الخارجية؛ التي تربط كل غاية داخلية بالغاية الخارجية العامة؛ وهي تحريك أجزاء الكائنات نحو مصير واحد، يتم فيه الوصول إلى يوم السعادة الأبدية أو الشقاء الأبدي أو الفناء الأبدي.

إن وجود يوم ينتهي فيه التاريخ البشري ويتم فيه الحساب العام حقيقة لا بد من التسليم بها؛ فإن القول بأن التاريخ البشري -الذي له بداية يعترف بها الجميع- ليس له نهاية؛ هو أمر لا ينسجم ومنطق العقل، ولا الدين كله... إنه يفقد التاريخ معناه، ويجعله بلا معنى، والفرق بين التصور اللاهوتي (اليهودي والمسيحي) للغاية التاريخية، وبين التصور الإسلامي... أن الغائية في التصور الإسلامي لا تقفز فوق مؤهلات الدنيا، ولا تختزل الدنيا بكل ما تتطلبه من معقولية وإيجابية اعتمادًا على الغاية النهائية... إنها تبتعد إلى الآخرة عن طريق الدنيا، وبقدر الإيجابية في الدنيا- مع استقامة الوسائل ، وشرف الغايات - تكون الدرجة في الآخرة.

إن الفلاسفة العقليين في عصر التنوير(الأوروبي) قد حاولوا علاج الخلل في التصوير اللاهوتي للغائية؛ لكنهم سقطوا في حفرة أعمق فجعلوا الغاية دنيوية بحتة... إنهم قد يكونون معذورين... فاللاهوت المسيحي يسيء إلى الدنيا إساءة بالغة، ويجعلها صفرًا في الرحلة إلى الخلود... بينما هي الطريق... إنه يقول: اهجر الدنيا؛ تضمن الآخرة، وازهد في الطيبات... ولا تعمر... ودع ما لقيصر لقيصر... وحسبك أن تؤمن بالمخلص الذي انتحر([[1]](#footnote-1)) من أجلك... أما التصور الإسلامي فيدعوك إلى المشاركة الكاملة في الدنيا تعميرًا وأكلًا من الطيبات، ومقاومة للباطل، وصناعة لمؤسسات الحق، ونشرًا للخير والمنفعة... وأنت عندما تموت في هذا الطريق تكون قد عبرت الدنيا عبورًا كريمًا، وأديت واجبك بهذا الحضور الدنيوي المكثف.. وإياك والغياب عن الدنيا وتركها للباطل يمرح فيها، وإياك أيضًا أن تجعل أهدافها -مثل الفلاسفة العقليين- دنيوية بحتة... إن عناية الله توجه التاريخ البشري وترعاه، وتقوده ليوم لا ريب فيه، لكن ذلك لا يتم على حسابك أيها ((الإنسان))... أيها الفاعل والصانع للتاريخ والحضارة - برعاية الله.... إنك مسؤول مسؤولية كاملة... وعلى قدر مسؤوليتك تحاسب، وعناية الله تعفيك من الحساب عن الكوارث الطبيعية، وعن كل ما هو فوق طاقتك !!

إن حركة التاريخ أمامنا قد تصيبنا بنوع من الضبابية في الرؤية، وقد يخيل إلينا -في بعض اللحظات- أن الغاية غير معقولة، لكن عدم إدراكنا لمعقوليتها لا يعني عدم وجودها، فعقولنا المجزأة، والتي تعمل بطريقة محكومة بالبيئة وبمؤثراتنا الذاتية لا تقوى على رؤية المعقول الكلي...

لنتذكر هنا قصة موسى والخضر عليهما السلام.

إن ((كانط)) شعر بهذه الأزمة وتساءل: ((إن أحدًا لا يستطيع تجنب شعور معين بالامتعاض، عندما يلاحظ أفعال الناس التي تعرض على المسرح الكبير للعالم؛ فالأفراد يظهرون الحكمة هنا وهناك، ولكن نسيج التاريخ الإنساني -ككل- يبدو أنه منسوج من الحماقة، وتفاهة الأطفال، وغالبًا من الآثام الطفيلية، وحب الدمار. ونتيجة ذلك فإننا في النهاية حائرون في معرفة ما هي الفكرة التي نصوغها عن نوعنا الذي نشعر بفخر عظيم بمميزاته))([[2]](#footnote-2)).

لكن ((كانط)) لا يلبث أن يجيب عن هذا اعتمادًا على فكرته المعروفة في فلسفة التاريخ، وهي فكرة ((التقدم)). فهو يرى ((أننا إذا اكتفينا فعلًا بالنظر إلى الأحداث التاريخية من وجهة نظر الأفراد المعنيين فقط فلن يصادفنا هناك سوى جمع مضطرب من الوقائع غير المرتبطة، والتي لا تعني شيئًا في ظاهرها)).

ولكن الأمر قد يختلف إذا حولنا انتباهنا إلى أحداث النوع الإنساني بأسره؛ بدلًا من أحداث الفرد. فإن ما يبدو من وجهة نظر الفرد فوضى وبلا قانون قد يبدو بالرغم من ذلك ذا نظام ومتعقلًا إذا نظر إليه من وجهة نظر الأنواع.

والوقائع التي بدأت فيما مضى بلا قيمة تبدو وكأنها تخدم هدفًا أكبر؛ فقبل كل شيء: إنه من الممكن أن يتبع التاريخ كما في الطبيعة، أو العناية الإلهية (يستخدم كانط الكلمتين بمعنى واحد) خطة طويلة المدى غايتها البعيدة هي الأنواع الإنسانية ككل، وقد يكون ذلك بتضحية بخير ومنفعة للفرد([[3]](#footnote-3)).

ويلتقي مع ((كانط)) في فكرة ((التقدم المطرد)) كثير من فلاسفة التاريخ في عصر التنوير؛ فقد أشار ((أكتون)) إلى أن التاريخ (علم تقدمي) وقال: إننا مرغمون على افتراض أن التقدم في الأمور الإنسانية هو الفرض العلمي الذي يكتب التاريخ وفقًا له([[4]](#footnote-4)). وكان المؤرخ جيبون -أبرز مؤرخي عصر التنوير- من المتحمسين لفكرة التقدم المطرد لدرجة أنه زعم (بأن كل عصر في العالم أضاف وما زال يضيف إلى الثروة الحقيقية للسلامة الإنسانية وسعادتها ومعرفتها، وربما فضيلتها)([[5]](#footnote-5))، وقد سمي زعمه هذا (النتيجة السازة الخاصة)، ومن الغريب أنه كتب هذه النتيجة في كتابة المعروف عن انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، (الفصل الثامن والثلاثين).. لكن فكرة التقدم المطرد سرعات ما انهارت على يد فلاسفة تاريخ القرن العشرين وعلى رأسهم شبنجلر، وتوينبي.

وعلى الرغم من وجود بعض العناصر اللاهوتية في فلسفة توينبي، ومن بعض تفاؤله الحذر بمستقبل للمسيحية... إلا أن الفكر اللاهوتي كان أمره قد انتهى، ولم يعد يحظى إلا بقليل من التقدير؛ ذلك لأن إلغاء دور الإنسان الأساسي في صناعة التاريخ أمر لا يمكن قبوله، كما أن القول بأن حوادث التاريخ تخضع لقدرة ربانية؛ لا تترك للإنسان دورًا يوازي مسؤوليته هو أمر مرفوض أيضًا؛ بل إن هذا الفكر اللاهوتي الذي يسميه الفيلسوف والمؤرخ ((غوستاف لوبون)) اعتقادًا صبيانيًا([[6]](#footnote-6)) قد أساء إلى التصور الإسلامي لفلسفة التاريخ؛ لأن كثيرًا من الأوروبيين وتلاميذهم الشرقيين لم يحاولوا دراسة الإسلام دراسة مستقلة بعيدة عن الفكر اللاهوتي العام.

ولم يكن خطأ الفكر اللاهوتي في إغفاله الدور الأساسي للإنسان فحسب... بل أيضًا في إغفاله للسنن الكونية والاجتماعية التي تخضع لها جميع حوادث التاريخ. والإسلام وهو وحده التصور الذي جمع بين وجود ((الغاية)) للتاريخ، ووجود ((معنى)) لكل وقائعه إن ظاهرًا أو باطنًا، وإن عاجلًا أو آجلًا، ووجود ((عناية إلهية)) ووجود دور أساسي ((للإنسان)) وخضوع الإنسان والطبيعة لسنن كونية،... هذه الأبعاد هي أضلاع لمعادلة متكاملة متوازنة تحكم حركة التاريخ، وتحقق للإنسان القدر المنطقي من الحرية الذي يتوازى مع قدراته وإمكاناته الزمانية والمكانية... وليس بينها أي تناقض كما يتصور الفكر اللاهوتي أو المفكرون العقليون!!

\*\*\*

إن الفكر العلماني التنويري كان منفعلًا في مواجهة الفكر اللاهوتي، وكان –بالتالي- معبرًا عن (أزمة روحية) وهو يقرر - كما يقول برجسون ((إن من العبث أن يحاول الإنسان أن يعين للحياة غاية، بالمعنى الإنساني لهذه الكلمة. فإن الغاية -بهذا المعنى- معناها وجود نموج من قبل لا يعوزه إلا أن يتحقق بالفعل، أي أننا نفترض -حينئذ- في الواقع أن كل شيء موجود دفعة واحدة، وأن المستقبل يمكن أن يقرأ في الحاضر... بينما الحياة تقدم وتتابع واستمرار))([[7]](#footnote-7)).... ولم يتساءل هذا المفكر: إلى متى سيظل هذا التتابع والاستمرار؟ إن أمامنا كثيرًا من الحضارات قد اندثرت أو تحولت إلى ذرات في جسم حضاري أخرى؛ بعد أن ابتلعتها في أحشائها وحولتها إلى جزء منها، ويومًا ما ستصل الحضارة الغربية إلى ساعة الأفول، أو الانتحار، أو الامتلاء، لدرجة الموت؛ وقد تقوم حضارة أخرى أكثر روحانية وإنسانية وتوازنية... لكن التسلسل والدور لا يمكن أن يستمرا متتابعين دون نهاية، فوجود الزمان المطلق المتحرر المجرد -يمثل معنى شعريًا- أكثر منه معنى واقعيًا...!!

((زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير)) [التغابن: 7].

\*\*\*

## تفسير التاريخ: مطلب إنساني تخلف فيه المسلمون

منذ خمسة قرون، والبحث عن المنهج التاريخي الأصلح لكتابة التاريخ الإنساني، وتفسير التاريخ يحتل من المفكرين والمؤرخين في العالم مكانة عظيمة، وتبذل فيه جهود شاقة رائعة، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا.

ويعتبر العالم الإسلامي -للأسف الشديد- نشازًا في هذا البحث اللاهث، فما زال البحث التاريخي لا يهتم –إلا في قليل- بقضيتي منهج البحث التاريخي وفلسفة التاريخ.

والنظر إلى قائمة الأطروحات العلمية التي قدمت في جامعات العالم الإسلامي في أقسام التاريخ والحضارة -بالإضافة إلى بحوث المؤرخين والمفكرين- يؤكد هذا الحقيقة!!

لكن القضية بدأت تطرح نفسها علينا بعمق، بعد أن بطلت مقولة إقامة السور الحديدي الفكري بيننا وبين العالم الأوربي؛ لحماية أنفسنا من أفكاره ومناهجه؛ ففضلًا على عبثية هذه المقولة في ظل الأساليب الحضارية المعاصرة فإنها أيضًا مقولة لا تخدمنا، حتى ولو نحج في تطبيقها!!

إننا لابد أن نبحث في بنائنا الداخلي، وفي تطوير كياننا، وفي البحث عن وسائل القوة في داخلنا ومن خارجنا، وفي فقه سنن الله الكونية والاجتماعية في التطور والبقاء، ولا سبيل لبقائنا في هذا العالم إلا عن هذا الطريق.

إن تشريحًا قويًا يجب أن نقوم به -بإخلاص وجرأة- لتجربتنا في التاريخ، وإننا يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا في الاعتراف بالحقيقة كما هي، وفي تقويم هذه الحقيقة على ضوء الثوابت الإلهية التي نؤمن بأنها (المطلق) و(المثل العليا الحضارية) لنا وللإنسانية.

وجدير بالذكر أنه لم يعد ممكنًا كتابة التاريخ غير مرتبط بتفسيره، إن المنهج العلمي لكتابة التاريخ يحكم الوشائج بين قبول الواقعة رواية (نقلًا)، وقبولها دراية (عقلًا).

وقد أصبح فقه البيئة الاجتماعية والنفسية والثقافية المسيطرة من أركان قبول الواقعة والحكم عليها ومهما يكن لتفسير التاريخ من كيان مستقل فإن أجزاء كثيرة منه -على الأقل في معطياته الأولى- ستبقى مرتبطة بالوقائع التاريخية الجزئية لا تنفصل عنها.

إن هذه مسلمة قرآنية أغفلها المسلمون وبحثت عنها البشرية طويلًا!!

## توظيف المنهج التاريخي وفلسفة التاريخ

كان أول عمل للمؤرخين المسيحيين هو وضع خلفية تاريخية رائعة للعقيدة المسيحية، وتدعيم أهمية التاريخ المقدس وعلاقته، وهم يعنون به (التاريخ اليهودي والمسيحي معًا)، وبذلك غدا التطور التاريخي لليهودية والمسيحية هو المحور الرئيسي في تاريخ الماضي بأسره، بينما وصفت الأحداث التاريخية التي دونتها سجلات الأمم الوثنية في صورة عرضية ثانوية([[8]](#footnote-8))، ولما جاءت الحركة الإنسانية وظهر تأثيرها العام على الكتابة التاريخية بدأ الاهتمام يتجدد بالأدب الوثني، والتاريخ الوثني، هذا إلى أن الحركة الإنسانية كان لها أثر هائل في تضاؤل عنصر المعجزات في عملية تفسير أحداث (التاريخ) فضلًا على تضاؤل (الآثار العاطفية) (للملحمة المسيحية)، ومع ذلك لا ينبغي أن نتصور أن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين، أو المتشككين في الديانة المسيحية وإنما الغالب أنهم تجاهلوا -ولم ينكروا- مزاعم اللاهوت والجدل الديني، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى تأثير النزعة الكاثوليكية.

وهكذا قدر للتاريخ الوثني أن يستعيد -إلى حد ما- مكانته البارزة التي فقدها على أيدي الكتاب المسيحيين بصفة عامة([[9]](#footnote-9)).

وكان ظهور ((مارتن لوثر)) عودة جديدة إلى الرؤية المسيحية للتاريخ، بل إن حركة الإصلاح الديني بقيادة (كالفن) و(لوثر) أعطت الجهد البشري في تفسير التاريخ تقديرًا أقل مما أعطته الكنيسة في سالف عهدها، ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة الدينية، والمنظمات التابعة لها هي صاحبة المقام الأكبر والأول في مقام البحث التاريخي، بل إن التاريخ العالمي صور مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان([[10]](#footnote-10)).

((وغني عن القول أن إحياء النزعة الدينية في مجال الاهتمامات التاريخية كانت ضربة قاصمة للموضوعية الخالصة التي لمسناها في كتابات بعض المؤرخين أمثال ((جويكورديني))؛ بقدر ما كانت بالغة الضرر بالنسبة للحفاظ على الاتجاه الدنيوي في كتابة التاريخ؛ وهو الاتجاه الذي كانت تمثله المدرسة الفلورنسية.

كذلك ترتب على إحياء تلك النزعة ضعف الاعتقاد بأن دراسة التاريخ تتم بدافع من حب الاستزادة من المعرفة وزيادة حصيلة المعلومات عن الماضي، وهو الأمر الذي أضنى ((بولبيوس)) نفسه من أجله، ذلك لأن التاريخ في تلك الظروف الجديدة أصبح أداة عملية معرفية تأويلية متعصبة بدرجة لا تقل عنفًا عما كان عليه أيام القديس ((أوغسطين)) وتلاميذه: وبعبارة أخرى فإن النظرة إلى الماضي في ذلك العصر جعلت (ترسانة) شاسعة ومتنوعة يستمد فيها الفريقان المتخاصمان أسلحة وذخيرة لا حدود لها لاستخدامها في تشويه صورة خصومهم. كذلك ظهر هناك تجاهل خفيف لمبادئ النقد التي أحياها خيرة كتاب المدرسة الإنسانية؛ وذلك أن أتباع كل مذهب من المذاهب الدينية كان يحاول أن يجد في الماضي ما يؤيد وجهة نظره، بينما يبذل جهده في أن يظهر معارضيه في أقبح صورة))([[11]](#footnote-11)).

وخلال القرنين -التاسع عشر ومطلع العشرين- لمعت أسماء من أمثال (فرديك شبلنج ت 1845م) الذي كان متأثرًا إلى حد كبير بآراء فيخته (الذي كان مؤمنًا إيمانًا شديدًا بتفوق الجنس الألماني)، ثم (فرديك شليجل ت 1829م)، مع تركيز على العامل الديني الكاثوليكي، ثم -في نهاية هذه المرحلة- ظهر (ويلهلم هيجل) الذي كانت الدوافع القومية واضحة وراء فلسفته بطريقة تتضح أكثر من فيخته، فقد صرح (هيجل) في فلسفته بأن الألمان قد عهد الله إليهم بمهمة إيصال نعمة الحرية إلى الجنس البشري([[12]](#footnote-12)).

وقد ظهرت إلى جانب ذلك مدارس فرنسية وإيطالية وإنجليزية وبلجيكية وأمريكية في تفسير التاريخ (فيكتور كوزين 1367م فرنسي، ثيودور جوفرويت 1842م فرنسي، تيرجو الذي سبق كونت في تقسيمه الشهير للتقدم على ثلاث مراحل: اللاهوتية، والميتافيزيقية، والعلمية)، و(وفيليب بوشير ت 1866م فرنسي، ثم أوجست كنت ت 1857م، فرانسوا لورنت 1887م بلجيكي، قيصر بالبوت 1853م إيطالي، فيراري ت1876 إيطالي، وهربرت سبنسر ت 1903م إنجليزي، وهنري باكل ت 1862م؛ صاحب كتاب تاريخ الحضارة في إنجلترا، إنجليزي، وروبرت فلينت 1910م إنجليزي، وهوايت، وهاريس وروريس، وفيزيك الأمريكان، الذين كانوا عالة على المدارس الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية).

## أساسيات الرؤية الإسلامية للتاريخ

وفي ضوء هذا البحث الإنساني الدؤوب عن تفسير إنساني موضوعي للتاريخ يتبدى لنا أن من حق الشرائح الإنسانية كلها أن تقدم ما لديها وصولًا إلى بعض المفاتيح وليس كل المفاتيح لحركة التاريخ والكون.

وفي الوقت نفسه يجب على المسلمين أن يتقدموا -إنصافًا لرسالتهم وحضارتهم- بجهودهم في مجال فلسفة كونية وتاريخية أصيلة؛ تقوم على ركائز التصور الإسلامي الأساسي... إنه ليس حقهم فحسب، بل إنه واجبهم كذلك.

لقد أدلى النصارى بما لديهم... وهم -واليهود- يشكلون رؤية دينية للتاريخ ينقصها المشروع الحضاري والصلة الوثيقة بالواقع... وقد أفرز هذا التصور مادية مغرقة كانت رد فعل للاستغراق اللاهوتي، وكلا التفسيرين أغفل عناصر أساسية، ولم يستطع تصور النسيج الكامل والمحكم والمتوازن والمتشابك للعملية الحضارية... وكلاهما عمق الرؤية في جانب على حساب الجوانب الأخرى، وبالتالي فالتفسيران المثالي واللاهوتي عاجزان!!

* والنظرة الإسلامية للتاريخ تتميز عن غيرها بأنها تؤمن بثبات الفطرة الإنسانية، وثبات السنن الكونية التي تتحرك الأحداث في داخلها وبمقتضاها...

فالرؤية الإسلامية تؤمن بأن الجانب المعرفي يتطور في الإنسان؛ ولكن مع بقاء عناصر ثابتة يتلقاها الإنسان عن الوحي؛ ولا يستطيع إدراكها بعقله وحده...

\* وقراءة التاريخ -من جانب آخر- لا تقتصر على حياة الحكام، وأخبار الوقائع والحروب؛ بل لابد أن تصل إلى نسيج الحياة من خلال الدراسة الجادة للحياة الاجتماعية، والفكرية، والاقتصادية...

\* والتصور الإسلامي يرى أن الجانب المعرفي، والفكري يتطور في الإنسان مع حاجته إلى ضوابط وعناصر تكمله؛ لأن هناك معارف ثابتة يجب على الإنسان أن يتلقاها من الوحي لا من العقل الذي هو -بطبيعة محدودية طاقته- عاجز عن إدراك تفصيلاتها... وثمة مسلمات في الجانب المعرفي الكوني والاجتماعي يجب التسليم بها...

وبعد ذلك فالمجال مفتوح لعمل العقل في مساحة واسعة: كونية واجتماعية؛ يستطيع من خلالها تسخير الكون؛ ومجالات العلوم، والفنون، والآداب، وفقه النفس الإنسانية، والطاقات الإنسانية المختلفة، واستكشاف عظمة الله من خلال تدبر آلائه ولآياته في الكون والنفس، ومن ثم استخلاص القوانين الطبيعية والاجتماعية.

ومن الجدير بالذكر -وقبل الوصول إلى مرحلة استخلاص القوانين- ضرورة قراءة الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية قراءة فاحصة؛ بل إن تركيز تفسير الحركة التاريخية يجب أن يتجه إلى قراءة الجوانب السالفة الذكر، والتي لم تأخذ حقها من التاريخ، مع أنها التاريخ الأجدر بالاهتمام... ومع أن أبطالها وقادتها هم صانعو الحضارة الحقيقيون.

والحق -عند النظر الفاحص- أن التاريخ السياسي، والعسكري قد يشكل عبئًا على حركة الحضارة... فقليل من الحكام كان صالحًا، وقليل من المعارك كانت ذات فائدة، أو كانت موجهة دفاعًا عن المثل العليا أو لحماية الحق، وأكثر المعارك كانت لخدمة أطماع توسعية، أو لخلافات شخصية بين أمزجة الحكام، كما أنها كانت تتم بأساليب همجية لا يقرها الوحي الإلهي، ولا العقل الصحيح!!

إن تاريخنا ليس فردًا في هذا المجال.. فمعظم تواريخ العالم -إن لم يكن كلها- يشوبها سلوك معظم حكامها وعسكرييها: أباطرة كانوا، أو قياصرة أو كياسرة، أو ملوكًا فراعنة.. إن معظم هؤلاء كانوا كالديدان التي تعيش على أفضل ما في الجسم وتقتله في آن واحد.

فكيف يصبح هؤلاء محور دراسة تاريخية والحضارية مع أنهم يمثلون أكبر جوانب السلب فيها...؟!

وإن عظمة كثير من الحضارات -وعلى رأسها الحضارة الإسلامية- أنها بقيت بالرغم من الفساد الذي يجلبه هؤلاء!! إن التنظير الإسلامي الحضاري للتاريخ ضرورة للمسلمين وللإنسانية كلها... وهو -في الوقت نفسه- حق للمسلمين، وواجب عليهم... وعندما نتجه علميا وبصورة جماعية – للبحث في أساسيات هذا التفسير، فإن علينا أن نعيد قراءة حولياتنا التاريخية وموسوعاتنا الحضارية، وكتب الفقه، والأدب، والرجال، والطبقات؛ باذلين معظم الجهد في التعرف على حياتنا الحضارية التي تقوم على الفكر والثقافة والعلم -أولًا- وعلى النشاط الاجتماعي- ثانيًا والنشاط الاقتصادي -ثالثًا- والنشاط السياسي والعسكري -رابعًا-!!

ومن الواجب أن نصهر كل هذه الفعاليات في بوتقة واحدة؛ لأن الفعل الحضاري يتأثر بالبيئة المعاشية كلها، مراعين في الوقت نفسه النسبة المحددة لكل نشاط وأثره في الحضارة، ومراعين ترتيب العناصر وفق أولويتها، والنسب المحددة لها.

\*\*\*

ويتضح لنا كيف أننا ظلمنا تاريخنا الحضاري، وأعطينا الساسة والعسكريين أكثر من حقهم عندما نتأمل هذه العبارات التي كتبها أحد المفكرين وهو يتحدث عن الكنوز المنسية والمظلومة الموجودة في تراثنا والتي أهملت بسبب طغيان الجانب السياسي والعسكري...

يقول الكاتب:

((لو أني بقيت خمسين سنة أحدث الناس كل أسبوع عن علم من أعلام المسلمين، أو أعرض عليهم قصة من قصص بطولاتهم وعبقرياتهم لما انتهيت، ولما قاربت الانتهاء... وكيف؟ وعندي في مكتبة بيتي الصغيرة أكثر من خمسين مجلدًا في تراجم الرجال، لو أن في كل مجلد منها مائة ترجمة لكان في ذلك وحده خمسة آلاف ترجمة، لخمسة آلاف علم من أعلام الإسلام، وما ليس عندي من كتب التراجم أضعاف ذلك.

ثم إن في كتب التاريخ والأدب، والمحاضرات والرحلات، آلافًا أخرى لم تفرد في كتب التراجم))([[13]](#footnote-13)).

إن صفحة من صفحات حضارتنا -ومثلها عشرات الصفحات- لم تكتب من منظور حضاري كما ينبغي أن تكتب... إنها صفحة القضاء، والقضاة، هؤلاء الذين كانوا الحكام الاجتماعيين للشعب، وكان الحكام كثيرًا ما يخضعون لهم.... وعلى امتداد العصور الإسلامية، وقبل العصر الثوري المدمر اشتهر القضاة بالقوة والعدل، والورع، وتطبيق الشريعة بلا مجاملة أو محاباة.

كان محمد بن عمران قاضي مكة، فادعى لديه جمال على أمير المؤمنين العباسي، أبي جعفر المنصور، فبعث إليه (مذكرة جلب) فجاء في خف وطيلسان ما عليه من شارات الإمارة شيء، حتى وقفه بين يديه مع الجمال!!

وكان شريك قاضي الكوفة، وادعت لديه امرأة مجهولة على الأمير الخطير ابن عم الخليفة، وثاني رجل في الدولة بعد عيسى بن موسى، فحكم عليه حكما غيابيا، فامتنع الأمير من إنقاذه وتوسل إليه بكاتبه، فحبس القاضي الكاتب؛ لأنه مشى في حاجة ظالم، فاستعان عليه بجماعة من وجوه العراقيين من إخوان القاضي، فساقهم جميعًا إلى الحبس، فغضب الأمير، وبعث من أخرجهم، عند ذلك عصفت نخوة الشرع في رأس القاضي، وأخذته عزة الإيمان فقال: ((والله ما طلبنا هذا الأمر (يعني المنصب)، ولكنهم أكرهونا عليه، وضمنوا لنا فيه الإعزاز إذا تقلدناه لهم)). ثم ختم قمطره، وجمع سجلاته، واحتمل بأهله وتوجه نحو بغداد، ووقعت الرجفة بالكوفة لما علمت بخروج القاضي، حتى خاف الأمير على سلطانه، فلحق بالقاضي يناشده الله أن يرجع، فقال القاضي: ((لا والله حتى يرد أولئك إلى الحبس فما كنت لأحبس أنا وتطلق أنت))، فبعث الأمير أن يرجعهم إلى الحبس، والقاضي واقف ينتظر حتى جاءه الخبر بأنهم قد أرجعوا، فقال القاضي لغلامه: ((خذ بلجام الفرس الأمير وسقه أمامي إلى مجلس الحكم في المسجد))، وهناك أجلسه بين يديه مع المرأة، فلما انتهت المحاكمة، وحكم لها عليه نهض فسلم عليه بالإمارة، وقال له: ((هل تأمر بشيء؟) فضحك الأمير، وقال: ((بماذا آمر؟ وأي شيء بقي؟)) قال له شريك: ((أيها الأمير، ذاك حق الشرع، وهذا حق الأدب.. فقام الأمير، وهو يقول: من عظم أمر الله، أذل له عظماء خلقه!!([[14]](#footnote-14)).

وكان القضاة إذا عقدوا مجلسًا للقضاء، لا يفضلون صاحب قضية على آخر، بناء على مركز صاحبها، ومن أخبار القاضي (عمر بن عبد الله) أنه كان إذا جلس أمر من كانت عنده خصومة أن يكتب اسمه في رقعة، ثم يجمع هذه الرقاع ويخلطها بين يديه، ويدعو بأصحابها الأول فالأول، حسبما تخرج يده من رقاع([[15]](#footnote-15)).

وقد وقف يدي المأمون وهو في مجلس المظالم رجل يتظلم منه نفسه؛ فترادا الكلام ساعة فما اتفقا، قال المأمون: فمن يحكم بيننا؟ قال: الحاكم الذي أقمته لرعيتك (يحيى بن أكثم)، فدعا به المأمون فقال له: اقض بيننا. قال: في حكم وقضية (أي في دعوى)؟ قال: نعم، قال القاضي: لا أفعل. فعجب المأمون، وقال: لماذا قال يحيى: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضاء، فإن كانت له دعوى فليأت مجلس الحكم (أي المحكمة). قال المأمون: قد جعلت داري مجلسًا للقضاء. قال: إذن فإني أبدأ بالعامة ليصح مجلس القضاء (وتكون المحاكمة علنية). قال المأمون: افعل. ففتح الباب، وقعد في ناحية من الدار، وأذن للعامة، ونادى المحضر، وأخذت الرقاع (أوراق الدعوة والإعلان) ودعي الخصوم على ترتيبهم حتى جاءت النوبة إلى المتظلم من المأمون، فقال له القاضي: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين (المأمون)، فنادى المحضر: ((عبد الله المأمون))!! فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى، ويحيى جالس فقال للمأمون: اجلس!! فطرح الغلام المصلى ليقعد عليه فمنعه القاضي حتى جاء بمصلى مثله، فبسط للخصم وجلس عليه([[16]](#footnote-16)).

ولم يكن معظم القضاة يتجه للقضاء رغبة في كسب المال أو المركز؛ وإنما كان اتجاههم للقضاء رغبة فيما عند الله من الأجر والثواب، ومن هؤلاء -على سبيل المثال- القاضي (أحمد بن محمد بن خلف الملقب بأبي القاسم الحوفي الإشبيلي)، فقد كان يسترزق أثناء القضاء من عمل يده، وكان القاضي ابن سماك الهمداني عندما تولى القضاء يقوم بحاجته اليومية بنفسه، فكان يكسر الحطب على باب داره والناس من حوله يختصمون إليه ويسألونه([[17]](#footnote-17)).

ومن الوزراء يقدم لنا مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (ت 606هـ) نموذجًا للوزير العالم الزاهد في الحكم وفي الدنيا، فقد خدم الأتابك عز الدين بن مودود وولده نور الدين أرسلان شاه فصار واحد دولته لدرجة أن نور الدين كان يقصد منزله ليستشيره عندما أقعد بسبب المرض في آخر زمانه. وقد كاد طبيب مغربي أن يصل به إلى الشفاء من مرض النقرس، وأشرف على الشفاء الكامل؛ لكنه صرف الطبيب عن إتمام العلاج، وقال لأخيه عز الدين عندما عاتبه على طرد الطبيب الذي ظهر نجاحه: إنني في راحة من صحبة هؤلاء القوم (يعني الأمير والحاشية) وقد سكنت روحي إلى الانقطاع والدعة، وقد كنت بالأمس وأنا معافى أذل نفسي بالسعي إليهم، وها أنا اليوم قاعد في منزلي فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاءوني بأنفسهم لأخذ رأيي، وبين هذا وذاك كثير، ولم يكن سبب هذا إلا هذا المرض، فما أرى زواله ولا معالجته ولم يبق من العمر إلا القليل فدعني أعش حرا سليما من الذل وقد أخذت منه أوفر حظ.

وهكذا لزم الرجل بيته صابرا محتسبا يغشاه الأكابر والعلماء، وكان قد أنشأ رباطا بقرية من قرى الموصل تسمى (قصر حرب) ووقف أملاكه عليه وعلى داره التي كان يسكنها بالموصل([[18]](#footnote-18)).

وقد عمر علماؤنا الحياة بالعلم والعمل، وكانوا -مع ذلك- زاهدين في الدنيا؛ زهد القادرين لا خضوع المستسلمين المنهزمين.. وقد جاء بعض من أرخوا لهم فظلموهم وصوروهم وكأنهم صوفية متواكلين؛ يعيشون بلا عمل ويعتمدون في حياتهم على الصدقات، مع أن الزهد بمعنى التوكل ، والكسل لم يكن في الزهاد المخلصين؛ وإنما اتسم به نفر من أدعياء التصوف من الجهلة والعوام...

كلا... فما كان صناع حضارتنا كذلك، وما فهموا الزهد إلا بمعنى الثراء والاستعلاء، وما فهموا العبادة إلا بمعناها الكوني الفسيح الذي سخر الدنيا لراية التوحيد...

ولقد جرت محاورة بين اثنين من كبار الصالحين وضحت هذا التصور الصحيح، فقد قال الفضيل بن عياض لعبد الله بن المبارك (رضي الله عنهما): أنت تأمرنا بالزهد ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، فكيف تأمرنا بشيء وتفعل خلافه؟. فقال له عبد الله بن المبارك: يا أبا على أنا أفعل هذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي... ولا أدري لله حقًا إلا سارعت إليه حتى أقوم به([[19]](#footnote-19))!!

فالزهد أن تكون قادرًا غنيًا ثم تزهد وتعطي... لا بد أن تكون خاملا فقيرًا تأكل من أوساخ الناس وصدقاتهم.

وكان الليث بن سعد فقيه مصر وعالمها الأكبر في عصر هارون الرشيد، وكان مع ذلك من أثرى أثرياء عصره، وكان زاهدًا كريمًا... ويروى أن الخليفة (هارون الرشيد) بعث إلى الإمام مالك بن أنس بخمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب الرشيد وقال له: كيف نعطيه أكثر مني وأنت من رعيتي؟ فقال له الليث: إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار فاستحييت أن أعطي مثل هذا الإمام أقل من دخل يوم ([[20]](#footnote-20)).

وقد ورد في ترجمة الإمام أبي حنيفة النعمان أنه كان تاجر أقمشة مع شريك اسمه حفص فباع شريكه لأحد الزبائن ثوبًا فيه عيب، ولم يخبره بعيبه، ولم ينقص له الثمن، بل استوفى منه الثمن كاملًا، فلما علم أبو حنيفة بذلك، راح يبحث عن المشتري ويفتش عنه، وساعده شريكه في البحث والتفتيش فلم يقفا له على أثر ولم يعثرا عليه، فعندئذ رفض أبو حنيفة أن يقبل ثمن الثوب ولم يضمه إلى ماله بل تصدق به كله، وفسخ الشركة مع شريكه احتياطا لدينه.

وكان يونس بن عبد الجليل من كبار علماء العصر العباسي، وكان صاحب متجر لبيع الأقمشة والثياب، وقد رويت عنه قصص دالة على النهاية في الورع، والروعة في الإخلاص في البيع والشراء([[21]](#footnote-21)).

وكان كثير من القضاة والفقهاء والمحتسبين ذوي شجاعة وتدرب على فنون القتال، وقد ذكرت كتب الرجال كثيرًا من هؤلاء؛ نورد منهم هنا (الفرج بن كنانة)؛ أحد كبار القضاة في قرطبة الذين قادوا الجيش وجاهدوا مع المجاهدين، وقاموا في الوقت نفسه بدور اجتماعي كريم. ومنهم أيضا الفقيه القاضي المعروف (أسد بن الفرات) في تونس.

ويعتبر الإمام ابن جرير الطبري (310هـ)، والإمام أبو محمد علي بن حزم (456هـ)، والإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (728هـ)، وغيرهم من أصحاب الموسوعات الكبرى والهمم العالية التي ندر وجود مثلها في الحضارات في عصور كانت تخلو من كثير من الوسائل المساعدة الحديثة... يعتبر هؤلاء ظاهرة تحتاج إلى رصد واستقصاء، ودراسة موضوعية لأسباب هذه العبقريات -كيفًا وكمًا- وأسباب هذا العطاء العملاق.

ويقول الطبري عن نفسه: حفظت القران ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع. وقد قسم ما ألفه الطبري أيام عمره منذ ولد فكان أربع عشرة ورقة كل يوم!! وكان ابن حزم ثاني مؤلفي الإسلام، وقد ألف أكثر من أربعمائة كتاب ورسالة.

وتقع فتاوى الإمام ابن تيمية في أكثر من خمسة عشر ألف صفحة، ويقع كتابه (درء تعارض العقل والنقل) في أكثر من عشرة أجزاء في الطبعة المحققة، بالإضافة إلى عشرات الكتب الأخرى التي تصل إلى آلاف الصفحات؛ فضلًا على جهاده المعروف ومعاركه ضد البدع والأهواء.

وقد كان علو الهمة وقوة الإرادة، والعمل الدؤوب شاغلهم الأشغل.

والإمام ابن الجوزي يقول عن نفسه: نظرت إلى علو همتي فرأيتها عجبا وذلك أنني أروم نيل كل العلوم، وأروم نهاية العمل بالعلم مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق، وأروم الغنى عن الخلق؛ والاشتغال بالعلم مانع من الكسب وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع نفس في غير فائدة([[22]](#footnote-22)).

إن هؤلاء -وآلافا مؤلفة غيرهم- هم الذين صنعوا حضارتنا، وهم الذين يقدمون لنا أبرز ملامح الرؤية الإسلامية للتاريخ!! (وليس الساسة أو العسكر)!!

\*\*\*

وفي نهاية هذا الشوط يجب أن نكون واضحين في موقفنا من أنفسنا ومن الآخرين... فهل نحن مجرد شريحة من شرائح الجنس البشري لا تتميز بشيء، وهمها الأكبر أن تصل إلى التقدم والرفاهية، وبالتالي يمكننا -إذا كان ذلك ممكنا- أن نحطم كل شيء في سبيل هذا الهدف العاجل والظرفي، أو أننا شريحة من الجنس البشري تمثل (قلب) هذا العالم (وضميره) وأن مهمتنا في التاريخ أن نضم (العقل) إلى القلب والضمير بحيث نقدم صياغة حضارية تأخذ بما هو (معقول)، ومنتوج عقلي بحت من كل الحضارات، وتضم ذلك إلى(قلبها) و(ضميرها) في نسيج متكامل متناغم؟!!

إنه لابد من توضيح موقفنا إذا شئنا أن نقدم رؤية علمية تنتمي إلينا وإلى حضارتنا في تفسير التاريخ... فإذا آمنا بأننا مجرد شريحة من الجسم البشري لا خصوصية لها فما علينا إلا أن نمضي وراء المدرسة التي تحمل أسماءنا... لكن قلبها وضميرها قد ضاعا منها، وأصبحت (كلا) أوربيًا لا يتجزأ، حتى وإن ظلت تزعم بأنها مسلمة وتحتفظ بأسمائها العربية أو الإسلامية، ونموذج محمد أركون وتلميذه أحمد عبد المعطي حجازي، وعزيز العظمة، وماجد فخري، وسعيد العشماوي، وحسين أحمد أمين وأمثالهم تناضل في هذا الطريق، وتحاول أن تقضي على الثوابت والخصوصيات؛ بحيث تفقد الأمة في معركة الحضارة كل سلاح تستلهمه من ثوابتها، ومن تراثها وحضارتها، وتركع سريعًا (لفقدانها جهاز المناعة) أمام الشرائح الحضارية الأخرى التي تكون -في النهاية- الجسم البشري!!

\*\*\*

## تاريخنا الإسلامي والطبيعة البشرية

في كل التجارب التاريخية ثمة رصيد ثابت للطبيعة الإنسانية في مستوياتها التعبيرية المختلفة...

إن الإنسان -وهو يعيش إنسانيته- ليس نسقًا واحدًا مضطردًا بطريقة آلية؛ بل هو مزيج مركب من العناصر والتناقضات التي تجعله يعيش-إلى حد كبير- قدرا كبيرا من التوتر والصراع داخله بين القوى المختلفة... كما أنه بهذا الكيان المركب - يواجه الحياة الخارجية التي تخضع -هي أيضا- لنمطية متدافعة بين قوى الخير وقوى الشر....

فثمة توتر في داخل الإنسان وثمة تدافع بين الإنسان ونوعية الحضارة التي يبدعها الإنسان....

ومن البدهيات أن هذا التوتر -في الداخل أو مع الخارج- هو نفسه الطريق لإبداع الحضارة.... إذ السكون المطلق هو الطريق الطبيعي للجمود والموت....

وكل ما تصنعه المبادئ الرفيعة في رحلة التاريخ -وعلى رأسها الإسلام- أنها تجعل الإيقاعات المتنافرة متناغمة، وأنها تحول دون أن تقضي الشوائب والسلبيات على نهر الحياة الإنسانية... فيبقى الشر -وبخاصة في مراحل الازدهار- محصورًا في جوانب قليلة، وفي دائرة الشذوذ، بينما يمتد الخير إلى معظم المساحة الإنسانية،. ويمثل -بالتالي- قاعدة الحياة الإنسانية، إن المجتمع الذي لا أخطاء فيه ليس إنسانيًا، ومثل هذا المجتمع لا يوجد -ولا يمكن أن يوجد- في التاريخ البشري والفترة التي وجد فيها الأنبياء- عليهم السلام- ولاسيما في لحظات انتصارهم، وسيطرة مبادئهم هي أعلى المراحل التي يمكن أن تصل إليها البشرية...

إنها المثال الذي تضعه العناية الإلهية في ((نموذج تاريخي)) واقعي لكي تبقي البشرية متفائلة مقاومة للشر، متوترة، ساعية إلى الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من هذا المثال الحي الواقعي.

وليس في طوق الطبيعة الإنسانية أن يقوى الناس جميعًا -أو أكثرهم- على الوقوف في القمة والتشبث بمواقع البطولة والمثال.

إن سحرة فرعون الذين قالوا عندما تألقت الحقيقة في ضمائرهم ((آمنا برب العالمين)) [الأعراف: 121].

وفاجأوا فرعون بإعلانهم: ((إنا إلى ربنا منقلبون)) [الأعراف: 125]، غير عابثين بتهديده الرهيب: ((فسوف تعلمون\* لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين)) [الأعراف: 123-124].

إن هؤلاء السحرة قد ارتفعوا في لحظة من التاريخ إلى أعلى ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تصل إليه، وليس لنا أن نتوقع أن يكون كل الناس مؤهلين لهذا الارتفاع، ولا لهذا القدر من التضحية الرائعة، ومن التفاني في الحق المتألق....

كما أنه ليس مطلوبًا من كل الناس أن يكونوا في مستوى أبي بكر الصديق؛ الذي يتبرع بكل ماله.. إن أبا بكر مجرد (نموذج للمثال)، أما المستوى المتناغم مع الطبيعة البشرية فهو المستوى الذي حدده الرسول -عليه الصلاة والسلام- عندما منع (سعد بن أبي وقاص) من أن يتصدق بكل ماله؛ بل رضي له ما هو أقل من ذلك؛ حتى يذر ورثته أغنياء لا يتكففون الناس، حسبه أن يهب ثلث ماله... بل إن الثلث كثير!!

ونموذج الأنصار الذين منحهم القرآن أرفع درجة في التاريخ -الإيثار بالمال والأرض- وهو أيضا مجرد نموذج للمثال الذي يقدم أروع صورة بشرية أن تقترب منها، وليس شرطًا أن تكون في مستواها، فيصبح كل مسلم قادرًا أن يقول لكل مسلم: انظر أي مالي أطيب فخذه، أو انظر أي زوجتي شئت فأطلقها لتتزوجها...!! إن هذا المستوى ليس هو المستوى العادي للطبيعة البشرية... إنه الومضات الإنسانية؛ التي تمثل أعلى ما يمكن أن يصل إليه البشر... إنه مستوى القمة والمثال...

وليس من الموضوعية؛ أن يحاكم التاريخ البشري بأقوى وأكبر مما تطيقه الطبيعة البشرية... وحتى القوانين الوضعية ترفض هذا المقياس؛ لكن بعضها -مع الأسف- تتدنى فتهبط خضوعًا للضعف البشري إلى مستوى تقنين هذا الضعف، وجعله في نطاق الجائز، بدلا من أن يدعم جانب مقاومته لتصعد به إلى المستوى المنسجم مع الطبيعة البشرية، تلك الطبيعة التي لا يجوز لها أن تستسلم لصور الضعف، وتقبل تحويلها من دائرة الشذوذ إلى دائرة القاعدة، ومن جانب الخطأ إلى جانب الصواب!!

وأحرى بمنهج دراسة التاريخ وتفسيره؛ أن يلتزم هذه العدالة في التقويم، وأن يضع في وعيه التصوير الموضوعي للإنسان كله، بكل قوته وضعفه، وبكل العناصر التي ركب منها.

إن محاولة رفع بعض عصور التاريخ إلى درجة فوق مستوى البشر وطاقة البشر، بهدف التدرج من هذا الارتفاع إلى محاسبتها بميزان غير بشري، ومطالبتها بأن تكون متجردة من كل النوازع البشرية، ومن كل ما يجوز على البشر... إنما هي مؤامرة لتشويه هذه العصور (!!) والعلمانيون يستثمرون هذه المؤامرة!! بهدف مسبق هو تشويه تاريخنا الإسلامي، ورجاله العظماء، ودوله العظيمة.

إننا نوافق بالطبع؛ بل نحن نؤمن، بضرورة أن تكون بعض عصور التاريخ، وأن يكون بعض صناع الحضارات العظمى، بعيدين عن التدني إلى المستوى العادي في الأخطاء، وبأن يكون لهذا المستوى الرفيع تعبيره الخاص عن بشريته بما ينسجم مع القمة التي يمثلها... ونحن نستطيع في ضوء هذا الوعي تحليل بعض التصرفات التي تعزى إلى هؤلاء تحليلا مناسبا لمكانتهم؛ لكن تجريدهم من المستوى البشري -بإيجابياته وسلبياته واجتهاداته العقلية والسلوكية الصحيحة والخطأ أو المعيبة- ووقوعه تحت ضغوط أو ردود أفعال ومؤامرات؛ إنما هو أسلوب غير موضوعي وغير صحيح!!

ولقد سقط كثيرون -سقوطا منهجيا في الأساس- عندما تعاملوا مع تاريخنا، غير مسلحين بهذه الرؤية التاريخية الإنسانية الموضوعية... وسواء كان الأمر عن حسن نية، أو سوء قصد، فقد انتهى كثير من هؤلاء -نتيجة فساد منهجهم- إلى تجريح بعض الصحابة، وإلى تضخيم صور الخلافات بينهم، وإلى القول في نهاية الأمر بأن شريعة الإسلام لم تطبق إلا في حقبة من الزمان تنتهي بنهاية عصر الراشدين (41هـ)... أما العصور التالية، والتي تبدأ بالدولة الأموية (41- 132هـ) وتستمر حتى اليوم، فهي عصور (علمانية) غابت عنها الشريعة، وحكمتها معادلات سياسية مصلحية، وأوضاع اجتماعية واقتصادية بشرية لا صلة لها بتعاليم الإسلام (!!) وهذا قول بالغ الفساد، عظيم الظلم لا ينتمي إلى تاريخنا بصلة، وقد قدمنا بعض الصور من صفحة القضاء تؤكد سمو التاريخ وتظهر المكانة الرفيعة التي احتلتها الشريعة في حياتها.

وفي الصفحات التالية نعرض للتاريخ الإسلامي بعد الراشدين، وصولًا إلى التحليل النقدي الموضوعي له....

## تاريخ ما بعد الراشدين والتحليل النقدي

لقد عالج كثيرون -مسلمون وغير مسلمون- تاريخنا بمنهج غير علمي، وقد جاء تقويمهم جانحًا يميل إلى الإفراط أو التفريط... وقد غلبت على بعضهم نزعات مذهبية جعلتهم يحللون النظم والدول والوقائع وفقا رؤية مسبقة، وقلما ينجحون في كشف حجب التاريخ ورصد الوقائع رصدا موضوعيا...

لكن مثقفي الأمة وجمهور مؤرخيها استطاعوا -بمنهج النقد المستفيد من منهج علم الحديث إلى حد كبير- رصد الخلفية المذهبية لهؤلاء، ومن ثم تحليل كتاباتهم التاريخية، وتقويمها تقويمًا علميًا..

وفي هذا السياق؛ رصد المنهج التاريخي الإسلامي تلك المصادر التي يتحرك مؤلفوها بخلفية مذهبية مسبقة، تحول دون تحقيق القدر المقبول من الموضوعية... ولم يترك تاريخنا دون تحليل نقدي كما يزعم أركون وتلامذته!!

وبدءا من تدوين السيرة كان ثمة تقويم خضع له رجال التدوين الأولون، بعيدًا عن التعصب و الهوى...

فقد قيل عن شرحبيل بن سعد (ت 123هـ) إنه يميل إلى العباسيين لأسباب مصلحية!!

وقيل عن وهب بن منبه (ت 114هـ) إنه شغوف بالطرائف التي أوقعته في الإسرائيليات...

وقيل عن الواقدي (207هـ) إن له ميولًا لآل البيت.

وقيل عن أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي (157هـ) إنه يميل لآل البيت ولقبيلة الأزد([[23]](#footnote-23)).

أما كاتب السيرة الكبير ابن إسحاق (ت151هـ) فقد هاجمه المحدثون؛ لأن الفروق بين منهجي الحديث والتاريخ لم تكن وضحت، وكان المحدثون -جزاهم الله خيرًا- يريدون أن تكون درجة روايات التاريخ في مستوى درجة روايات الحديث... وأن يخضع المؤرخ لشروط المحدث، ولهذا فإن وقائعه تحاكم إلى ما ورد في القرآن والسنة الشريفة... لكن المراحل التالية للقرن الأول يصعب أن تخضع لمنهج الجرح والتعديل الذي خضع له رجال الحديث... وإن كان هذا مطلبًا كريمًا يجب أن يعمل المؤرخون على تحقيقه..!!

ولئن كان هذا الجيل من التابعين وتابعي التابعين قد تعرضت رواياته لبعض النقد... فقد اتجه النقد إلى المؤرخين الذين جاءوا بعدهم من باب أولى...

فقد ذكر المؤرخون أن المسعودي (ت 345هـ) كان ذا ميول لآل البيت، دفعته إلى التحيز ضد الأمويين، ومع ذلك تمتع بقدر من الاعتدال والموضوعية؛ عندما تحدث عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وعن عبد الملك بن مروان، وغيرهما من رجال بني أمية!!

وكان اليعقوبي يمضي في الطريق نفسه؛ بل كان واضح التحيز لآل البيت!!

أما أبو الفرج الأصفهاني (356هـ) صاحب الأغاني، فقد كان أجيرا لبني بويه (الشيعة)، وقد كتب لهم الأغاني بغية الأجر والمكافأة، وقد عرف ما يرضيهم، فأدان الأمويين، وبعض العباسيين، وبعض آل البيت من أجلهم، وبالغ في ذلك حتى ينسى الناس أصله الأموي!!

بينما كان ابن حوقل (ت 367هـ) صاحب صورة الأرض، جاسوسا للفاطميين يحرضهم ضد الأندلس، ويسب الأندلسيين والأمويين في الأندلس من أجلهم...

وكان المؤرخ المغربي عبد الواحد المراكشي (ت 630هـ تقريبا) صاحب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) يعمل موظفا لدى الموحدين، وقد كتب كتابه (المعجب) من أجلهم، وليس لنا أن نتوقع منه إنصافا للمرابطين؛ الذين قضى الموحدون عليهم بطريقة دموية آثمة!!

والأمثلة كثيرة لا نريد أن نستطرد في ذكرها، من أجل تأكيد حقيقة ثابتة؛ وهي أن المؤرخ المسلم الذي يضرب بجذوره في أرض ((علوم السنة))، والتي تشكل أساسا على منهج إيماني نقدي إبداعي باحث عن الحق المجرد، لم يكن مؤرخا تقليديا نمطيا استسلاميا سكونيا، كما يحاول خصوم الحضارة الإسلامية أن يصوروه!!

وما كان العقل النقدي المسلم -لو كان عقلا سكونيا تقليديا- قادرا على إفراز عمالقة في علم نقد الرجال، وفي نقد المتن (المضمون) يعدون بالآلاف في حضارتنا، وعلى رأسهم أئمة الحديث المعروفون، وعلى رأسهم البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي، وابن ماجة، وعدد كبير من الفقهاء وعلى رأسهم أئمة المذاهب الثلاثة عشر([[24]](#footnote-24)) الذين انتشر من بينهم فقه أقطاب المذاهب الأربعة أبو حنيفة (ت 150هـ)، ومالك (ت 179هـ)، والشافعي (ت 204هـ) ، وابن حنبل (ت 241هـ) ثم الظاهرية بقيادة داود الظاهري، وأبو محمد علي بن حزم (ت 456هـ)، ثم الإمام (أحمد بن عبد الحليم بن تميمة) (ت 728هـ)، والمؤرخ الاجتماعي الكبير/ عبد الرحمن بن خلدون (808هـ)، الذي يعده المؤرخون الأوربيون -المنصفون- أول من وضع نظرية في علمية (علم التاريخ) وفي قوانين (تفسير التاريخ)!!

وعبر تاريخنا الممتد في الزمان أربعة عشر قرنا، والممتد في المكان إلى مساحة كبيرة من أكبر قارات الأرض، والتي شملت -في قرون كثيرة- دولا تقترب من نصف العالم، وتسيطر على العالم المتحضر ما يقرب من عشرة قرون.

عبر هذا التاريخ ظهر آلاف من المشتغلين بعلوم النقد المنهجي، بدراسة علوم الحديث، وفروع السيرة والتاريخ، وبرصد الجوانب الإصلاحية والحضارية...

وكان هؤلاء جميعا يتعاملون في الإطار البشري، بمعنى أنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل إنسان غيره يؤخذ من قوله ويترك، والمهم أن يكون النقد منهجيا قائما على أصول علمية، ولا يكون مجرد دعاوى أو افتراءات واختلافات، وقد وضعوا كتبا في أدب الاختلاف وأدب الحوار، وفي منهج الوصول إلى الحق من خلال النقد والتمحيص القائم على قواعد صحيحة والهادف إلى الحق... وقد انطلقوا في ذلك من القاعدة النبوية الكريمة؛ التي تعلمهم أن المجتهد الذي تتوفر فيه مؤهلات الاجتهاد، والذي يلتزم منهج الحق مثاب، سواء أصاب في اجتهاده أو أخطأ... وحتى يبذل المجتهد أكبر جهد في الوصول إلى الصواب، أعطى الإسلام المصيب أجرين، وأعطى المجتهد المخطئ أجرا واحدا!!

وفي حضارتنا العلمية كانت الأحكام الإجمالية مرفوضة، فالعقل المسلم درج منهجه في علوم الحديث وأصول الفقه والتفسير واللغة والبلاغة على تفكيك القضايا وتحليلها، ومن ثم إعادة تركيبها.

وقد بالغ العقل المسلم في التحليل (التفكيك عند أركون) لدرجة جعلت بعض المستشرقين (والمستشرق جب([[25]](#footnote-25)) على رأسهم) يتهمون العقل المسلم بأنه عقل ((ذري)) (أي جزئي غير قادر على التركيب والتقنين الكلي)!!

وعندما كان المسلمون يمرون ببعض محطات التخلف كانت تظهر فيهم -مثل غيرهم- بعض مظاهر التخلف؛ التي يرصدها خصومهم، ويزيد بعضهم برؤية مضادة وظالمة أن يجعل من هذه المظاهر سمة عصورهم كلها، وبالتالي سمة دينهم وحضارتهم!!

وإن أمة تملك علوم الجرح والتعديل، وعلوم النقد التاريخي قبل أن تعرفها البشرية، وتسبق العقل الحديث في التعرف على تفسير التاريخ، وعلوم العمران والحضارة... هذه الأمة لا تحتاج إلى من يلفتون نظرها -من خصومها- إلى ضرورة نقد أصولها... إنهم لا يريدون نقدا؛ وإنما يريدون هدما.

## نسيج التاريخ الإسلامي ومنظومة الحضارة الإسلامية

لم يبذل حتى الآن جهد موضوعي كاف في مجال اعتماد التاريخ منطلقا من المنطلقات الأساس لنهضة الأمة الإسلامية!!

ففي المجال الثقافي ما زال تاريخنا الإسلامي يتعامل معه على أساس الانتقاء المذهبي، وإسقاط الأيديولوجية المسبقة، وعلى أحسن الفروض يتعامل معه على أساس أنه مجرد ذاكرة لماضي الأمة، وأن وقائعه يجب أن تخضع لمعايير التوثيق السليم، والعرض المنهجي التقليدي.

وفي المجال الدراسي التعليمي ما زال تاريخنا بعيدا عن بناء إنسان مسلم عالمي الرؤية والأهداف؛ يتلقى التاريخ على أساس أنه تاريخ كل المسلمين، وأنه المحاولة البشرية -بإيجابياتها وسلبياتها- لتطبيق المبادئ الإسلامية في الحياة، وأنه الترجمة الصادقة لفاعلية المسلمين في التاريخ الحضاري.

إنه يقدم في كل بلد مسلم تقديما خاضعا لنظام الحكم، وتلوى عنق وقائعه لتخدم التوجه السياسي لكل بلد، ولتساعد على تخريج جيل يؤمن بالنظام السائد، وببعض ما يرضى عنه النظام من فترات الماضي!!

إنها لكارثة حقا أن تشكل مؤسسات للعرب جميعا وللمسلمين جميعا، وأن تعلوا أصوات كثيرين بوحدة المسلمين وبالتضامن الإسلامي، بينما يفرض على تاريخ المسلمين أن يسخر لتفتيت المسلمين وغرس الإقليمية والقومية العنصرية، بل وتبرير بعض المذاهب المادية والعلمانية والإلحادية والباطنية التي فرضها خصوم المسلمين عليهم جراء ضعفهم وتمزقهم، وعدم تعبيرهم التعبير الصحيح عن حقائق الإسلام ومنهجه في بناء الفرد، والأمة، والحضارة.

ووسط هذا الإجهاض لدور التاريخ في بناء نهضة الأمة تقف هنا وهناك محاولات قليلة تشبه الشموع وسط ظلام حالك.

إنها محاولات تحاول تعميق النظرة في التاريخ نفسه، وليس تشريحه وفق خلفية مسبقة وتوظيف رسمي أو مذهب محدد...

وهي تحاول أن تنظر إلى وحدة التاريخ الإسلامي وتشابكه على أساس وحدة الحضارة الإسلامية، حتى وإن اختلفت أساليب التعبير وأصداء الإيقاعات...

فمن فوق مناهج التمزيق الذي يعتمد عناصر الدولة، أو القوم، أو الأرض، أو اللغة -وحدها- أو كل عنصر على حدة؛ يقوم التشريح الإسلامي للتاريخ على أساس (الحضارة) باعتبارها الوحدة القابلة للتنظير والتفسير الشمولي الموضوعي...

ولأن الإسلام كان دائما -حتى وإن خانته طائفة حاكمة أو طائفة مذهبية خارجة على انسجام الحضارة وأصولها- دينا ينساب في كل أركان الحياة، ويتفاعل انطلاقا من عقيدة المسلم الفرد وإيمانه وشريعته في مستواه وفي مستوى الجماعة...

ولأن الإسلام دين ملتصق بواقع الناس وشتى أركان حياتهم على هذا النحو المعروف، فإن الإسلام كان -دائما وما زال- يشكل -بنظمه ومؤسساته، وطوائفه المؤمنة، والعالمة، والصانعة، والزارعة، والمجاهدة-الخيوط الثابتة التي نصنع نسيج المجتمع وتحكم علاقاته، وثوابته، وعاداته، وتقاليده.

وهذا النسيج المتصل بأركان الحياة الفردية والاجتماعية من كل زواياه لا يتأثر إلا قليلا بالتحولات التي تقع في المستوى السياسي، ولاسيما وأنه إلى ما قبل التخلف الحضاري العلمي والفكري الذي وقع فيه المسلمون في مواجهة الحضارة الأوروبية الحديثة؛ كان المسلمون - على الرغم من كل ما لحق بهم من هزات وتقلبات هم أصحاب الحضارة العليا، وهم أساتذة الدنيا، وحتى لغتهم كانت الأولى في العالم التي تعتبر لغة الثقافة والحضارة!!

وهذه الحقيقة الثابتة تسقط -من ثم- كل التفسيرات السطحية التي وقفت كثيرا عند بعض المعابر السياسية في التاريخ الإسلامي السياسي، مثل ما سمي (بالفتنة الكبرى) بين علي ومعاوية (رضي الله عنهما) وما سمي بقيام بيني أمية، وظهور الملك العضوض وآثاره -في رأي بعضهم- ومثل سقوط بني أمية وقيام بني العباس، أو ظهور المماليك أو سقوطهم، إلى أن يصل الأمر إلى سقوط بني عثمان، وقيام عصر الدويلات الطائفية الأخيرة، وهو الحدث الذي يعتبر -بحق- من التحولات التاريخية الأسيفة، ليس لمجرد سقوط العثمانيين وخلافتهم، بل لأن هذا السقوط تبعه تنحية شريعة المسلمين على المستوى الرسمي، وتفكك المسلمين على المستوى العقدي والفكري، وخضوعهم لتيارات (أيديولوجية) معادية للثوابت الإسلامية، وعجزهم عن المواجهة الموازية للتحديات الحضارية التقنية، والعلمية، والسياسية، والعسكرية، التي يتمتع بها الذين أسقطوا خلافة بني عثمان.

إن سقوط بغداد سنة (656هـ) على يد التتار لم يكن تحولا حضاريا، وإن كان تحولا سياسيا؛ ذلك لأن مبادئ الحضارة الإسلامية لم تلبث أن تفوقت على الغزاة المنتصرين، وحولتهم إلى جنود لها... كما أن العباسيين والأيوبيين والمماليك؛ مثلوا جميعا الحضارة الإسلامية على اختلاف في مستويات التعبير!!

فخط السياسة غير خط الحضارة إذن!!

وبالطبع ليس بوسعنا أن نتجاوز معبر سقوط الأندلس وغرناطة سنة (897هـ- 1492م) فهنا صفحة طويا وامتزجت بقايا إشعاعاتها بأرض المغرب العربي... ومع أنها (محطة) حقيقية يجب الوقوف طويلا عند عوامل سقوطها، إلا أن المسلمين لم يتحدثوا عنها كما تحدثوا عن قيام بني أمية وفتنة علي ومعاوية (رضي الله عنهما)، مع أن الثانية ليست إلا تغييرا في الشريحة السياسية والأسلوب السياسي في الحكم، وقد يكون تغيرا له مبرراته التاريخية؛ بينما كانت الأولى (سقوطا) و(انقطاعا) حضاريا بكل معنى الانقطاع الحضاري في هذا الركن الجنوبي من أوروبا... وللأسف فإن المنهج الخطأ جعل كثيرا من المسلمين يتحدثون عن أمجادهم في إسبانيا، دون أن يقدموا دراسات تفصيلية جادة ومكثفة عن أسباب سقوط الأندلس!!

إن التفسير الإسلامي للتاريخ يجب أن يعيد ترتيب ((المحاط)) في دراسة التاريخ الإسلامي اعتمادا على (وحدة الحضارة) من جانب، وعلى (الحضارة) -كوحدة- من جانب آخر!!

(فجسم) الحضارة الإسلامية الذي هو الكيان المادي للمسلمين من تراب وإنسان يجب أن ينظر إليه على أساس أنه وحدة...

كما أن (عقل) الحضارة الإسلامية، وما أفرزه من إبداعات في الفكر، والفن، والأدب، والفقه، والفلسفة، والعمارة، والزراعة، والصناعة يجب أن ينظر إليه -كذلك- كوحدة...

و(روح) الحضارة الإسلامية التي هي جوهرها وقلبها، هي وحدة كذلك بكل ما تضمه من عقيدة وأخلاق وتشريع وصياغة روحية للحياة؛ تؤمن بالغيب كما تؤمن بعالم الشهادة، وتستعين بذلك على صياغة الحياة، وتؤمن بوجود الله، وبعنايته، ورعايته لحركة الإنسان في التاريخ...

إنه -سبحانه وتعالى- يساعد الإنسان، ولا يكبله، ويحنو على خطاه، ويدفعها للأمام، ولا يجمدها أو يشدها إلى الخلف... وما الأنبياء والمرسلون إلا منظمون لحركة الإنسان حتى لا يحاول القفز من فوق السنن الكونية، وضوابط الحركة الاجتماعية، ويعبد ذاته، ويجعلها هدفا، وينسى وظائفه الوجودية، وارتباطاته العليا بمسؤولية إنسانيته وبوظيفة سامية في هذا الكون...

إن ما يقدمه الأنبياء ليس تكبيلا -كما يفهم الملحدون المتخلفون- وإنما هو شارات الطريق وخريطة الفعل الحضاري التي تفرق بين المنطقة الصالحة للسير، والمنطقة المهلكة التي يموت فيها الإنسان، وتنهار الحضارة في أوحالها ورمالها المتحركة!!

ونحن لم نجد في التاريخ حضارة مشت بدون هذه الشارات والضوابط، وتجرأت على المناطق الحرام؛ إلا كان مصيرها الزوال مهما امتد بها العمر، وقد ورثها قوم آخرون مضوا وفق سنن الله والضوابط والشارات التي وضعها المرسلون من الله سبحانه وتعالى.

ويعد من أهم ما يلتزم به التفسير الإسلامي للتاريخ أن يقسم تاريخ البشرية على ضوء تفاعلها مع رسالات الأنبياء ومستوى إيمانها بها، ومحاولاتها تقديم صياغة للحياة على ضوء الثوابت العقدية والتشريعية التي قدموها، أو -من جانب آخر- خروجها على هذه الثوابت وما أصابها في مسيرتها من جراء هذا الخروج.

وعندما يصل التاريخ البشري -من مراحل تعدده- إلى مرحلة نزول القران وظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه يكون قد انتهى إلى المرحلة القرآنية التي تتألق فيها الرسالة النبوية والإسلامية الشمولية،

وبدءا من هذا التاريخ تبدع الإنسانية المسلمة حضارة تمتد إشعاعاتها إلى كل قارات الأرض

ونحن نرى البشرية -هنا وبدءا من هذه المرحلة الفاصلة- تنقسم بوضوح شديد أكثر من أي مرحلة سابقة إلى (إسلام) و(كفر) أو (إسلام) و(وثنية)... وفي هذه المرحلة التي تعكس الهيمنة القرآنية نرى امتزاج العقل بالوحي، ونرى تكاملا يقدم للبشرية نموذجا حضاريا وإنسانيا متوازنا؛ يتكامل فيه إبداع الجسم مع العقل مع الروح...

وعندما كان المسلمون يمرون بمراحل التخلف كان التوازن يختل، ويتفوق رصيد الجسم على رصيد العقل، أو رصيد الروح، وكانت النسب التعادلية تتعرض -بالتالي- لخلل جوهري، ينتهي إلى إفراز إبداع حضاري تنقصه بعض خصائص حضارة الإسلام. وقد تمر فترة من الوقت، ولا تلبث الموازين القرآنية الثابتة التي تكفل الله بحفظها أن تفرز مصلحين يعيدون الفعالية الإسلامية إلى توازنها في إطار ما يقوي عليه البشر، وما تسمح به خصائصهم الإنسانية.

ولا بد، ونحن نؤطر للتنظير الإسلامي للتاريخ في المرحلة القرآنية؛ أن ننظر إلى العالم المسلم كوحدة، وأن ننظر إلى العالم الغير المسلم كوحدة منفصلة أو متقابلة... فهنا حضارة إسلام، تمثلها أمة مسلمة أخرجت للناس... وهناك حضارة قائمة على التصورات الوثنية أو العقلية المحضة؛ ولم يستطع اللاهوت المسيحي أن يخضع التاريخ الوسيط أو الحديث لأطروحاته؛ لأنه -أولا- كان معزولا عن الدنيا، ولأنه -ثانيا- لم تكن له شريعة فاعلة، ولأنه -ثالثا-لم يكن محتضنا للعقل؛ بل كان محاربا له، ولأنه -رابعا-امتزج بالوثنية، وفقد ذاته الروحية وتوحيده الإلهي منذ مجمع نيقية (325م)... كما أن اليهودية لم يكن لها امتداد عالمي، أو مشروع حضاري إنساني؛ بل كانت -دائما-عقيدة عنصرية قومية مغلقة!!

إنه على امتداد القرون التالية لميلاد الإسلام 610م لم يكن هناك مشروع حضاري واضح القسمات والمنهج غير الحضارة الإسلامية...

ولو أن المسلمين لم يصابوا بالهمود الحضاري، والتآكل الداخلي، والغياب عن فقه السنن الاجتماعية والكونية؛ ولو أنهم نجحوا في دخول عصر التقدم التقني الحديث، مسلحين بالعقل، والروح والمادة، مازجين بين القراءة الإلهية التي قدمها الوحي ((اقرأ باسم ربك الذي خلق)) [العلق: 1]، والقراءة الكونية ((اقرأ وربك الأكرم \* الذي علم بالقلم)) [العلق: 3-4]، لو أنهم فعلوا ذلك لأمكن أن يتفوقوا على اليابان، وعلى النماذج الغريبة الموجودة أمامنا...

وفي هذا الإطار فإن تجربتهم في التاريخ كانت ستقدم لهم كثيرا من مقومات الإقلاع الحضاري، وكانت ستكشف لهم -من خلال رصد الإيجابيات والسلبيات- الخصوصية الحضارية التي لن ينطلقوا بدونها، وكانت -بالتالي- ستوفر عليهم هذه الفوضى الفكرية، وهذه التبعيات المتتالية للفكر الأوروبي: شرقية أو غربية، وهذه الازدواجية المتناقضة بين الحكام والمحكومين، وبين بعض شرائح الحضارة الإسلامية التي تسمى دولا وبعضها الآخر، وبين بعض المفكرين والمفكرين الآخرين، وكان في الإمكان أن يتحول الخلاف إلى تكامل، واختلاف الوسائل إلى مصب واحد في نهاية الأمر، ولربما نجح المسلمون في أن يوفروا قرونا ثلاثة؛ تاهوا فيها في التاريخ، وبددوا طاقات مادية ومعنوية لا يعلم حقيقتها إلا الله.

ولكي تكون نهضة الأمة حقيقية، فلا بد لها من دراسة ماضيها دراسة واعية شاملة، وهذا يقتضي منها بعث تجربتها التاريخية بعثا جديدا، وتمثلها تمثلا جديدا؛ لا يكتفى فيه بالرصد السياسي، ولا بسلامة الرواية والنقل، ولا بالنقد الجزئي للمتن؛ بل بالاستلهام الشامل لماضي الحضارة الإسلامية، عبورا بسلامة الوثائق، وبالنقد الجزئي، ووصولا إلى تفسير إسلامي موضوعي للتاريخ.

إن الوثائق لن تكون هي الأساس في المنهج التنظيري الذي ينشد التاريخ؛ بل إن أسهل شيء يقوم به الباحث أن يصل إلى المعلومات ((الموثقة)) ثم يضمها إلى بعضها، ويقدم بعد ذلك إطارا قد التصقت وقائعه فصار تاريخا.

إن الوثائق -بلا ريب- هي بعض عمل المؤرخ، لكن الأهم في عمل المؤرخ أن يعيش التاريخ، وأن ينقله إلينا حياة نابضة نكاد نراها ونلمسها، ونشعر بكل تفاعلاتها وأركانها. وبما أن حياة الناس في التاريخ لم تكن جداول هندسية أو أرقاما ميتة، أو جيوشا منضبطة الحركة والإيقاع؛ فإن على المؤرخ أن ينقل إلينا التاريخ بكل بشريته، وأمواجه المتلاطمة، والبواعث الفكرية، والنفسية التي تقف وراء كل موجة.

إننا نقف -بيقين- مع المؤرخ الكبير (فلهام دلتاي) في مطالبته المؤرخ أن يستحضر الحياة مرة أخرى، وأن يحيا الحياة من جديد في نفسه وإلا فقد التاريخ ماهيته وجوهره))، وبالتالي لن يكون مؤرخا حقيقيا إلا من أوتي عمقا وسعة في حياته الروحية الباطنية؛ يمكنانه من أن يحيا تجارب الماضي مهما يكن من تنوعها وشدتها، ومن أوتي فيضا وخصبا في هذه الحياة ييسران له بعث الحياة في هذه المادة الميتة (الوقائع) التي استحالت إليها الحياة الماضية، ولم يعد أمامه غيرها([[26]](#footnote-26)).

لكن (دلتاي) لم يقدم لنا الوسائل الكافية لإخراج الماضي من موته إلى الحياة... إنه إلى أ(ن الفردية المطلقة) القائمة على عدم التجانس وعلى صعوبة التركيب هي السبيل لهذا الإحياء؛ "كما أن برجسون قد قال بأن الحي يمتاز عما هو مادي بأنه يكون كلا مستقلا مقفلا؛ لأنه مركب من أجزاء غير متجانسة يكمل بعضها بعضا فكذلك يقول (دلتاي): إن كل فرد يكون كلا مستقلا مقفلا".

وعند (دلتاي) أن العظماء ما كانوا عظماء إلا لأنهم استطاعوا أن يجمعوا في نفوسهم كل التيارات الروحية التي تضطرب بها روح الشعب أو الحضارة التي ينتسبون إليها، ليس عن طريق الإيغال فيه؛ لأن عملهم إنما هو تحقيق لروح العصر فيصبحون ممثليه([[27]](#footnote-27)).

وعلى أساس هذا التحديد الذي ذهب إليه (دلتاي) كان الشعراء هم أقدر الناس -في رأيه- على تصوير الحياة في كل مظاهرها.

لكن رأي (دلتاي) -في أن (الفردية) التي تعني أن الفرد هو (مجتمع مصغر)، أو أن الفرد هو الممثل الصحيح والكامل للحضارة- رأى فيه مبالغة، ففي كل مجتمع شذوذ يعبر عن النوازع البشرية الخاصة التي قد لا يمثل أصحابها حضارتهم، ومن جانب آخر فإن (الشعراء) ليسوا الممثلين الواقعيين لحضارتهم -كما ذهب (دلتاي)- وإن مثلوا بعض آمالها وآلامها.

بل إن تقدير الثوابت الحضارية في كل مجتمع شرط ضروري لإعادة تمثل الماضي وإحيائه، ومع إحياء الإيقاعات الفردية المتنوعة، فإن الفقه الموضوعي بروح الحضارة، ومسلماتها، وبيئتها، ومناخها الفكري والنفسي والروحي؛ هو أكبر ضمان لإمكانية استحضار التاريخ وتمثله، ذلك لأن البشر العاديين عندما يعبرون عن فرديتهم فإنما يعبرون في فكرهم وسلوكهم عن إطار حضاري ينتمون إليه... إنهم أفراد وسط إطار عام، وهم يتحركون فوق أرض وروح في سياق واحد.

إن العقائد والأعراف والتقاليد الراسخة في كل حضارة هي التي تصوغ -إلى حد كبير- حياة الناس، ومن الصعب إدراك التنوع والفردية دون ربطهما بأطرهما الثابتة التي تشكل الجزء الأكبر من مساحة توجيه الحياة وصبغها.

وباستثناء القلة الشاذة، والمتمردة والمنسلخة في كل حضارة، فإن مجموع أبناء الحضارة الذين يتنوعون في التعبير، ويخضعون -في الوقت نفسه- لثوابت في التصور والسلوك تجعل منهم ممثلين لحضارة واحدة!!

إن حضارة المسلمين تقوم على قيم تتمثل في أفكار وأنماط سلوكية، وأماكن تمارس فيها هذه السلوكيات، ووسائل تعبير مختلفة من الفكر؛ أما نماذج بشار بن برد، وأبي نواس، وابن الراوندي، وجماعات الزندقة، والحشاشين، والباطنية؛ فهي الإيقاعات الشاذة المنسلخة.

لكن باستثناء هؤلاء وأمثالهم؛ فإن مجموع أفراد الأمة يعبرون عن إطار الحضارة الإسلامية...

فالعبادات المختلفة ترتبط بأزمنة وأمكنة وسلوكيات وصياغة لنشاطات الحياة وفق تعاليم الإسلام... وقد كان الناس يلتزمون بها، ويبرمجون حياتهم في الزمان والمكان والعمل وفقها.

وتأتي النظم الإسلامية في المعاملات والسياسة والاقتصاد لتحدد أنماطا سلوكية وفكرية تتكامل مع توجيهات العبادات.

وفي الوقت نفسه فإن مختلف العبادات المعاملات تقف على أرضية عقدية تحكم المسلم في فكره وسلوكه -بنسبة إجمالية- وتحدد له مجال الحلال والحرام.

فمن المستحيل -على سبيل المثال- في مجتمعات المسلمين -في شتى عصورهم- أن تظهر علاقة الرجل بالمرأة على النحو الذي ظهرت به في الحضارة الإغريقية، أو تظهر به الآن في الحضارة الأوروبية الحديثة.

وفي المجتمع الإسلامي لم يكن للربا السيطرة على الحياة الاقتصادية كما كان الحال في سيطرته على حياة العصور الحديثة. وأيضا فإنه لطبيعة المبادئ الإسلامية في التكافل الاجتماعي -من صور الإحسان الإلزامي، والزكاة، وحق الضيافة، والماعون، والأرحام، ونظام الميراث، والجار- بقي المجتمع الإسلامي بعيدا عن ظاهرة الإقطاع والصراع الطبقي التي كان عليها حال العصور الوسطى.

وهكذا -في تصورنا- يمكن استحضار الحياة الماضية، واستعادة التاريخ عن طريق رصد الفردية المطلقة؛ بكل ما تمثله من ذاتية مغرقة، أو متجانسة بتعبير (دلتاي) تتفاعل مع الكل الاجتماعي والحضاري.. لكن ذلك لا بد أن يتم في إطار المنظومة الأساسية التي تتشكل منها حركة الحياة الفكرية والثقافية التي تصوغ العادات، والتقاليد، وبقية الأنماط السلوكية الاجتماعية.

## الفعالية الحضارية الإسلامية بين التنظير والتطبيق

يقع بعض المفكرين المسلمين في تناقض شديد بين مستوى شمول الإسلام والقرآن لكل شيء: ((ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)) [النحل: 89]، ومستوى المطالبة القرآنية والإسلامية الملحة بالمشي في الأرض والتفكر في خلق السماوات والأرض، وفي النفس الإنسانية: ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون)) [الذاريات: 21]، والمطالبة الملحة أيضا بطلب العلم عبر مساحة قرآنية تربو على سبعمائة آية، علاوة على آثار النبوية القولية والفعلية.

ولو أننا تعمقنا في القرآن وفي السنة النبوية لوجدنا الموازين معتدلة وواضحة بين مستوى ((التفصيل والتنظير)) الذي وضع الإسلام معالمه في كل مجال من مجالات الفكر والحياة؛ من خلال عدد وضع من الثوابت والمعالم التي تحدد الفيصل، أو تحدد الفروق بين الواجب، والحرام، والمكروه، والمباح.... والمستوى العقلاني التطبيقي الذي به وحده يزدهر التنظير ويكسى عظمة لحمًا، وتتفتح آفاقه وتتواصل معطياته عبر العصور!!

وكما يخطئ بعض المسلمين في الفروق بين المستويين؛ فيتصورون الاقتصاد الإسلامي مجرد الابتعاد عن الربا والاحتكار والغش؛ والأخذ بالمضاربة، والمرابحة، والمتاجرة ويتصورون الأدب مجرد مواعظ أو ضوابط أخلاقية؛

كذلك يخطئ أعداء المسلمين حين يؤمنون بالتغير الدائم والحركة المستمرة، دون ثوابت، أو أصول، أو معالم؛ تضع الإشارات الكبرى، وتوجه المسيرة البشرية في كل عصور إلى الطريق القويم الذي يجب أن يتجهوا إليه، وأن يبدعوا فيه؛ مدركين ما ينبغي لهم وما لا ينبغي؛ مما قد يعجز عقولهم عن إدراكه، ومما قد يدركونه في مرحلة، بينما يغيب عنهم في مرحلة أخرى؛ ولهذا زودتهم العناية الإلهية به من خلال الوحي الصحيح، وهم بعد ذلك مطالبون بالإبداع في مجال التطبيق، معتمدين على عقولهم وطاقاتهم، مستنيرين بالثوابت والأصول، مستجيبين -في الوقت نفسه- لتوجيه الرسول -عليه الصلاة والسلام-:((أنتم أعلم بأمور دينكم))، مؤمنين بأن المعادلة بين التنظير والتطبيق لتحقيق الفعالية معادلة واضحة، لكن بعض المسلمين أضاعوا معالمها بين إفراط وتفريط!!

لقد درج كثير من المسلمين على معالجة تفسير القرآن وفقهه بطريقة فرعية وحرفية وجزئية... دون أن يتعاملوا معه بطريقة كلية شمولية، يستمدون منه القيم القرآنية المطلقة، والقوانين الثابتة ومفاتيح التعامل مع سنن الله الكونية والاجتماعية.... ومن ثم يستخلصون الإضافات الصالحة لتطوير التنظير!! ويا للأسف كان من نتيجة هذا أن انحرفت مسيرة المسلمين عن المنهج القرآني المعرفي والتجريبي؛ الجامع بين العقلية والمادية الحسية في إطار محكم...

وسيطر على فكرهم -في كثير من العصور- المنهاج اليوناني، ولا سيما بعد أن ترجمت كتب الإغريق بمؤازرة الدولة العباسية (الخليفة المأمون) في القرن الثالث الهجري. مع أن العكس -أي ترجمة المنهجية المعرفية القرآنية إلى اليونانية وغيرها- كان هو الصحيح، فنحن المسلمين المنطلقين من القرآن الكريم أقوم فكرا، وأنقى تصورا، وأزكى عقيدة، وأقدر على قدر الله حق قدره، واحترام السنن الكونية والتاريخية؛ لو بقي نهرنا الفكري سليمًا لا يعكر صفوه شوائب وثنية أو عقلية منحرفة!!

إن التصور القرآني للكون والإنسان والحياة هو أصدق تصور ظهر في التاريخ بهذا الشمول، وهذا التوازن... إنه الدليل الأكبر على عظمة الخالق الذي يتطابق كتابة المسطور مع كونه المنظور!!

ومن المعروف أن قدرًا كبيرا من موضوعات القرآن وقضاياه يعالج ما يعرف بالقصص القرآني، أو تاريخ الأنبياء وحضاراتهم، وتاريخ الأقوام الماضين، من مندثرين، وممن بقيت لهم امتدادات وشواهد، وهذه المعالجة لم تلق هذا الاهتمام ليكون القرآن كتاب تاريخ، ولا لإثبات إعجاز القرآن التاريخي فحسب؛ بل قصد بها -إلى جانب ذلك- أن يستوعب المسلمون سنن الله، وأن يلتزموها، وألا يحاولوا القفز من فوقها، وأن يدركوا أن تمكينهم في الأرض مشروط بالفقه بهذه السنن والتزامها في الحركة التاريخية والابتعاد عن التواكلية والعفوية، أو ما يسمى بإسقاط التدبير!!

فالاعتماد على الله والتوكل عليه -بمعناهما الحق- يوجبان فقه المفاتيح والأساليب والوسائل التي خلقها الله -سبحانه- وجعلها قاسمًا مشتركًا بين كل الناس، ومعالم تدلهم على وسائل البقاء والتقدم والتعمير

والقصص القرآني يعطينا أيضًا -في حركتنا التاريخية- ذاكرة ضرورية للحاضر والمستقبل إنه (الحاسوب) الذي يغذي الحاضر بالمعلومات الصحيحة المعتمدة على تجارب صادقة، ومن ثم يمكن استخلاص الطرائق الصحيحة لحركة المستقبل!!

والفيصل الأساسي بيننا وبين الماديين أننا نمزج بين الماضي والحاضر والمستقبل، ونراها نهرًا واحدا دافقا، يصعب وضع حواجز بين تياراته وأمواجه.

فالزمان كتلة واحدة، ومصطلحاتنا البشرية المعروفة: الماضي، والحاضر، والمستقبل مجرد مصطلحات نسبية معرفية، لكن سرعة الأمواج وقوتها تحول دون إقامة حواجز سميكة بينها؛ كما أن هذه الحواجز خاصة بنا نحن البشر ، ولكنها بالنسبة لعلم الله لا قيمة لها، فالثلاثية الزمانية عنده -سبحانه وتعالى – سواء ومن هنا الحديث في القرآن الكريم عن محتويات الجنة، وعن تنعم المؤمنين فيها، وكأنه رسم للوحة مرئية ومشاهدة، لا تفصلنا عنها هذه الآلاف من السنين.

ونحن نلمح هذا المعنى في أي حديث قرآني عن الغيب، فهو حاضر في تفاصيله ودقائقه تمامًا، كما أن هذا الغيب يجب أن يكون حاضرًا في وعي المسلم ووجدانه حضورا يصل إلى درجة اليقين الكامل، وإلا فقد الإيمان أول شروطه.

إن الإيمان بالغيب، واندماج هذا الغيب، في رحلة الزمان كلها؛ لا بد أن يكون مرتبطًا بالماضي والحاضر والمستقبل، وكأنه جزء لا ينفصل عنها إلا بمقدار الحساب والجزاء (في يوم الفصل - يوم القيامة)؛ هذا الأيمان هو الفيصل المكين بين المؤمنين والماديين الدنيويين (العلمانيين)

وهذا الغيب شيء مختلف تماما عن الأسطورة (الميثولوجيا) التي يحاول العلمانيون إضافتها إلى الغيب بينما هي وهم وخرافة، وليست كالغيب مستقبلا محدد المعالم ينقله إلينا من يحيط بكل شيء علمًا، ويملك الماضي والمستقبل، ويستحيل عليه الكذب أو إخلاف الميعاد!!

لقد ممكنا -عندما كانت المنهجية واضحة- أن يتم استيعاب أسلافنا للفقه الحضاري والعلمي للقرآن الكريم علميا خلال قرنين من الزمان، بعد ظهور الإسلام؛ حيث تمكنت قواعد الدعوة في الأماكن التي ساح الإسلام فيها وقد كنا أهلا لأن نجد على مشارف القرن الثالث الهجري نظريات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ومفاهيم ومصطلحات محددة نقتحم بها عالم الحضارات الموجودة، ونقود أهلها بها إلى الحضارة الإسلامية...

لكن تضخم ((علم الكلام)) وما أفرزه من تيارات جدلية عقيمة كان على حساب الفعالية الإسلامية في علوم الحياة الأخرى، وأيضا جاء الاتجاه إلى ترجمة علوم اليونان -بهذه الطريقة العشوائية، التي طبقها الخليفة المأمون، على مشارف القرن الثالث الهجري- خطوة غير حكيمة، بل غير منتظمة انتظامًا ينسجم مع البناء العالم للرؤية والفعالية الإسلامية، فوقع الارتباك في وقت كان من الممكن أن يكون بداية انطلاق عالمي إسلامي جديد.

وقد كانت المنهجية السليمة كفيلة – بعد هذين القرنين- بإغناء الحياة الإسلامية في كل مجالات الإبداع الإنسانية ، الثقافية، والعلمية؛ وكان كل قرن قادرًا على أن يندفع فيه المسمون بقدر من الفعالية؛ يمكنهم من أن يسبقوا كل الحضارات إلى عصر الفضاء والاتصالات!!

إننا لسنا إزاء محاكمة لمسيرتنا الحضارية، لكننا – حتى في هذه الأيام- مطالبون باكتشاف عوامل الخلل في هذا التاريخ، انطلاقا من أننا مؤمنون بأهلية الإسلام الدائمة للفعل الحضاري، وصلاحيته لقيادة كل زمان ومكان؛ بعد أن ختم الله به الرسالات، وجعله حجته الباقية، وكلمته الخاتمة إلى يوم القيامة. وأنه لضروري أن تعتدل المعادلات كلها في أيدينا، وأن تتوازن رؤانا بعد أن وجدنا أنفسنا في هذا المحيط الحضاري المتدني.

وإذا كنا نأخذ أوروبا تركيزها على الفعالية المادية، وإهمالها للجوانب الإنسانية والأخلاقية، فإننا يجب أن نأخذ على أنفسنا تقصيرنا الشديد في الفعالية المادية، واستهلاكنا لطاقتنا في مجالات كلامية عقدية أو سياسية... لقد اختل الميزان في أيدينا، كما اختل في أيديهم... لقد شد كل منا الحبل بطريقة خطأ، وكانت مسيرتنا التي انتهت بنا إلى واقعنا المعاصر أكبر حاجز حال دون تفهمهم لنا... فما كان ممكنا أن يتواضع الإنجليز ليفهموا ما عند المسلمين الهنود من أفكار عظيمة، مع أنهم يسوقون هؤلاء المسلمين الهنود سوق الأنعام، وما كان ممكنا للحملة الفرنسية التي جاءت بالمطبعة، وبالسلاح الحديث، أن يؤمن رجالها بأن لدى هؤلاء المصريين المتخلفين دينا يحمل قيما حضارية هم أحوج الناس إليها... إن الموقعين المختفين للسيد المستعمر وللبعد المقهور لا يسمحان بالتحاور الفكري ولا بالفعالية الحضارية، فإن القوة تعمي عن الحق، ومن هنا انتهت المدنية الأوروبية إلى نجاحات كبيرة في مجال العلم والتقنية؛ مقطوعة عن خشية الله، وعن احترام إنسانية الإنسان؛ وعن مجرد التفكير في التعاون مع الآخرين الضعفاء، على الخير الإنساني العالم!!

وإذا كان بعض المفكرين يرون أنه لولا الإسلام، الذي حول الطبيعة من معبود يخشى منه ويسجد الناس لشمسه ونجومه؛ إلى طبيعة مأنوسة موضوعة للبحث والتشريح والتسخير.. لولا هذا الإسلام – بهذا المنهج الجديد- لبقيت الحضارة الإنسانية الوثنية والكنيسة التي تحارب العلم هي المسيطرة على العالم... إذا كان هذا الذي يراه بعض المفكرين صحيحً– وهو صحيح- فإن غيبة المنهج الإسلامي الرشيد في البحث والتأصيل، بالإضافة إلى أوضاع المسلمين المتخلفة في القرون الثلاثة الأخيرة قد أعطت أوروبا الفرصة لكي تؤمن بأنها قامت على سواعد أبنائها وحدهم، وبأنه لا يمكنها أن تكون قد استفادت من هؤلاء المسلمين المتخلفين!!

ولن يتغير الفكر الأوروبي في تعامله مع الحضارة الإسلامية إلا يوم يظهر منهج جديد فرض على العقل الأوروبي احترامه... منهج بعيد عن الانهزامية الدونية، والتسول، باسم الحوار، أصيل في انتمائه للإسلام، منفتح في تعامله مع الإنسان والكون والحياة، ومتفاعلًا متوازنًا مع كل الحقائق العلمية والنتاج الحضاري لها...

في الآداب والعلوم والفنون -جميعها – يكون التطبيق قبل التنظير التركيبي!!

فالتطبيق الذي يستلهم الجذور والأسس الكلية- بوعي أو من دون وعي، شعوري أو غير شعوري- يسبق مرحلة التنظير بالمعنى العلمي المعروف للتنظير... من هنا لا بد أن يتحرك عقلنا الأدبي والعلمي إلى الأمام في مجال الإبداع... وصولًا إلى التنظير الكامل من خلال محاولات التطبيق المتنامية.

وعندما نتحدث عن ضرورة وجود رؤية أدبية وعلمية إنسانية ملتزمة بمنهج الإسلام، وبالانتماء للوعاء العربي الحضاري الإسلامي؛ تتحاور مع الرؤية الأوروبية العلمية والفلسفة المستقاة من الفكر الحر(الليبرالي) ، والرأسمالي المنطلق من النظرة الأوروبية للكون والإنسان والحياة... عندما نتحدث عن ضرورة مثل هذه الرؤية، فيجب أن يكون واضحا في أذهاننا أن الأصول الكبرى، والفقه الواعي أو الفطري بهذه الأصول لا يكفلان إيجاد تصور إبداعي تنظيري كامل المعالم والقسمات- دون الفعالية الإنسانية – مع أنهما قادران فعلًا على تحريك السلوك الفري والاجتماعي في الاتجاه المنشود!!

لقد بقى المسلمون نحو قرن بعد ظهور الإسلام يعملون على نشر الإسلام، وعلى نشر اللغة العربية؛ منطلقين من الأصول، ومن الوعي برسالتهم، وكانوا في سلوكهم النموذج الأصلي والأبقى لهذه الأصول... لكنهم لم يدخلوا ميادين التنظير والتقنين إلا بعد أن قدموا نماذج تطبيقية عملية.. لقد كان عدل القضاة من خلال آلياته ووسائله التنفيذية أسبق من التنظير للقضاء، وكان تطبيق الشورى أسبق من التفكير في وضع ((النظريات السياسية الإسلامية)) في فكر الماوردي أو غيره. وكان تطبيقهم الاقتصاد الإسلامي في حياتهم الفردية والاجتماعية -اعتمادا على الأصول- أسبق من التفكير في إنشاء نظام ((الخراج)) أو غيره.

إن الأصول تشكل الوعي وتنقي الفطرة وتقدم الاتجاه العام، ولكنها لا تسمح بتشكيل ((النظرية)) إلا بعد مزج الأصول بعالم الإنسان الواقعي -في حالاته المختلفة- وبعد إعمال العقل في ضوء التجارب البشرية؛ وصولا إلى إيجاد التنظيري الذي قد يبقى آمادًا متطاولة قابلا للمراجعة والإخصاب!! ولا يمكن أن يكون التنظير بعيدًا من التجربة الإنسانية والإعمال العقلي إلا أريد به -وله- أن يكون مجرد قواعد تربوية أو وعظية تفتقد الروح التركيبة والنماذج العملية والفنية التي تعطي النظرية للروح، والمصداقية، والقابلية للاستمرار.

\*\*\*

وحين قرأت للصديق الكبير الدكتور/ عماد الدين خليل حديثًا عن المدخل إلى ((إسلامية المعرفة))([[28]](#footnote-28))، ويذكر فيه أن ((المحور التنظيري)) هو المدخل الضروري للمحور التطبيقي... خطر لي أنه يقصد بالمحور التنظيري: ضرورة الوعي العميق بالأصول الكلية والمعالم العامة التي تمثل جوهر الرؤية الإسلامية للمعرفة بشتى فروعها... لكني عندما واصلت للتعرف على وجهة نظره وجدته يكاد يقترب من بعض العناصر التي لا يمكن الحديث عنها إلا بعد وجود مستوى معين من التطبيق. إنه يطالب هذا المحور التنظيري بأن يقدم للمحور التطبيقي ((تعريف المصطلح، وضروراته الملحة، وتصنيف الحلقات الأساسية للمعرفة))، ((وكذلك يمكن أن يتولى المحور التنظيري تقديم وتصنيف المقترحات الضرورية التي تعين على تنفيذ العلمية وتحويلها إلى أمر واقع ذي فاعليه مؤكدة، وقدرة -في الوقت نفسه- على الاستمرار والانتشار))...

وما يقوله الدكتور/ عماد الدين خليل صحيح تمامًا في بعض الفروع المعرفية التي تتمتع بنماذج تطبيقية قوية في تاريخنا، وذلك مثل المجالات الاجتماعية أو الفلسفة أو الاقتصادية... بيد أن الأمر في الأدب -بأجناسه الحديثة من رواية وقصة، وأقصوصة ، ومسرحية- لا يتمتع بهذا الرصيد، وما قدم في القرون الأخيرة من أعمال تطبيقية تعبر عن التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة يعد قليلا جدًا؛ ولذا فنحن في حاجة إلى تعميق؛ تكتمل له الأدوات الفنية في الأجناس الأدبية المختلفة حتى يصبح تنظيرنا قريبا من الكمال.

وما يقال في الأدب في علوم الاقتصاد والاجتماع وشتى المعارف؛ شريطة أن نكون واعين بقسماتنا الخاصة وبفروقنا الجوهرية عن الحضارة الغربية؛ من إيمان بالآخرة مع الدنيا، وبالله مع الإنسان، وبالغيب مع المحسوس؛ وإذا كان العلمانيون يعمدون -عن جهل أحيانا، ومكر في أغلب الأحايين- إلى إنكار ((الله)) و((الآخرة))، وإلى إذابة الجسور بين الأسطورة والغيب تشويها للغيب من جانب، وتعميقا للدنيوية الحسية الرافضة للدين من جانب ثان، وتحطيمها لمعنى الوجود الإنساني المتميز المسؤول من جانب آخر؛ فإننا يجب أن نقاومهم بالإبداع الذي يترجم رؤيتنا الإسلامية... تلك الرؤية التي تقدم العلاقة الموضوعية الكريمة المتوازنة التي تربط الإنسان بالله، والروح بالمادة، والمحسوس بالغيبي، والدنيا بالآخرة... ومن ثم تدين الرؤية الأحادية والتمزيقية والمادية العمياء للإنسان والكون! !

والحق أن منطق الإسلام يدحض هذا كله، ويؤكد المعنى والقيمة المسؤولية الحضارية والإنسانية... ويتضح هذا فيما ورد في كتاب الله:

((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين)) [الأنبياء: 16].

((ربنا ما خلقت هذا باطلًا)) [آل عمران: 191].

((لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين \* بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)) [الأنبياء: 17-18].

لكن هذا المنهج الإسلامي (الحضاري الإنساني الشمولي) يحتاج إلى فاعليتنا وجهادنا وإبداعنا...!!

فهل يترجم المسلمون تصورهم إلى واقع عملي كما ترجم الماديون تصورهم إلى واقع عملي، سيطروا بأدواته على عقول الناس، وخدعوهم عن ((الحق الكامل)) و((الميزان الواحد)) والمنهاج العلمي (العقلي التجريبي) المتعاون؟!!

إن تحقيق هذا الإقلاع هو التحدي الذي ينتظره منهم الوعي البشري كله، وتنتظره منهم الإنسانية التي تكاد تهوي إلى القاع؛ بخضوعها للمنهاج المادي الدنيوي الصراعي؛ الذي لا مكان فيه للضمير، ولا للروح، ولا للعدل، ولا لأخوة الإنسان لأخيه الإنسان..!!

\*\*\*

في الحضارة المتفاعلة.. كان القضاة والمحتسبون، والدعاة، والعلماء، والمفكرون، والمهنيون، والتجار، والزراع، والأدباء ، والشعراء، والفنانون، والمعلمون... وبعض الحكام، وبعض الوزراء، وبعض الشرط وبعض الحجاب والرسميين... كان كل هؤلاء يصنعون الحضارة...

وكانت الحضارة تمضي بالدفعة الروحية والشرعية، ومواصلة تقدمها في مجاليها الثابتين:

- مجال حفظ الحياة: من خلال حماية النوع، والذات، والعرض، والمال، والعقل، والدين...

- ومجال تحقيق تقدم الحياة وتطورها: من خلال نشر التعليم، ومساعدة الفكر والإبداع في المجالات المادية والمعنوية..

وكانت شريعة الإسلام القائمة على عقيدته وأخلاقه تنساب في كل الخلايا الفاعلة في الحياة، مثلما ينساب الضمير والعقل، ومثلما ينساب الماء والدم... فإذا ضعف تأثير الضمير قامت الحدود لتمنع الصدام بين الأجزاء الفاعلة في تيار الحياة.. ((تلك حدود الله فلا تعتدوها)).

لم يكن مبدأ الاستيراد الاستهلاكي قد عرف بعد، وحتى وسائل المواصلات لم تكن تسمح بالاعتماد على الاستيراد في الحياة... وكانت هذه الجريمة لم تصل - بعد إلى أن تكون ظاهرة يعرفها الجميع، ويتحدثون عنها، بل ويسكتون عنها ويستثمرونها لصالح بعض النظم الحاكمة...

بل هي -في الحق- أكبر جريمة أن يعيش شعب مستهلكًا مستوردًا عالة على شعوب أخرى.. إن مثل هذا الشعب لا يجوز أن يسمي نفسه مستقلا، ولا أن يطالب بحقوق، ولا أن يعتبر نفسه واحدًا من ركاب قطارة الحضارة ولا صناعها، حتى لو تغنى بماضيه الزاهر وأسلافه الأمجاد!!... فعلى امتداد ما يربو على اثني عشر قرنًا كانت شرائح الأمة الإسلامية تنصع الحضارة لتحقيق حفظ الحياة وتطور الحياة!!

## المجتمع الإسلامي ودوره الحضاري عبر التاريخ

## النسبة بين الأمة والدولة في حضارتنا

لم يصنع الحكام حضارتنا ولم يكونوا إلا جزءا من أجزاء تاريخنا.. لقد كانوا يركبون الموجات التاريخية المتلاحقة، ولكن هذا (الزبد) كان منفصلا في أكثر الأحايين عن القيعان...

فهنالك في الأعماق... كانت تتفاعل القوى الصانعة للحضارة، وكان نور حضارتنا يمشي في إطار قيمته وعقيدته، لا يأبه كثيرًا بمن ركب الموجة، وإن اضطر -في أحايين- إلى أن يهدئ من تفاعله، ويبطئ من سرعته، حتى يهوى بعض الراكبين الثقلاء!!

إن الذين ظلموا حضارتنا هم الذين وقفوا على الشاطئ يرصدون من يركبون الأمواج.. ويتحدثون عن (نظم الحكم) و(أساليب انتقال السلطة) و(أنواع الظلم للرعية)، و(الخلافات بين الأسر الحاكمة)...!!

لكن الحضارات ليست هنالك في هذا المستوى... وإلا لانتهت بعد قرن أو قرنين، ولباعها هؤلاء الراكبون بثمن بخس في بعض مساوماتهم السياسية...!!

إن الحضارة في الأعماق حيث يوجد (ما ينفع الناس)، وحيث تتعاون خمائر الحضارة في معركة الإبداع وصياغة الحياة، كما يليق بإنسانية الإنسان...

وكانت النظرتان -العجلى والمتأنية على السواء- تؤكدان أن هذه المجتمعات الإسلامية (رسميًا) هي مجتمعات إسلامية -أيضًا- (عمليًا وواقعيًا)...

إنها لا تتنفس الإسلام في رمضان، أو في ذي الحجة وحسب؛ بل تتنفسه وتحتكم إليه وتنصاع لأحكامه وأخلاقه على امتداد العام كله... إن الزمان كله يصاغ صياغة إسلامية!!

وحول مكة والمدينة والقدس تلتف كل عواصم المسلمين ومدنهم، وقراهم؛ محاولة أن تقترب من هذه الأماكن المقدسة في سلوك أهلها، وفي تزكية الضمير والوجدان الإسلاميين!!

فالمساجد تقوم بدور الجذب حول (مكة) المحور الأساس، والعلماء والمسلمون يغرسون في العقل والوجدان أن الأرض كلها مسجد، وأن الإسلام واحد، والرقابة الإلهية العليا، والشرعية الدنيا واحدة... وأن المسلمين أمة واحدة، وأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله ولا يسلمه... إن المكان في عالم الإسلام يصاغ صياغة إسلامية!!

\*\*\*

عشرات الألوف من المساجد تنداح حتى في البلاد التي لا يسكنها إلا مئات من المسلمين...

ومئات الألوف من العلماء والمربين ينتشرون في العالم، ينسجون العقول والضمائر بمبادئ الإسلام... وكلهم يتكلمون لغة إسلامية واحد نابعة من كتاب الله وسنة رسوله (القولية والفعلية).

وحلقات القضاة التي في المساجد أو خارجها تحكم حركة الحياة وتعطي كل ذي حق حقه وتؤصل التعاون، وتمتع الصراع، وتقف- في سبيل تحقيق الغاية- حتى في وجه الحكام!!

ومحتسبون ودعاة هنا وهناك ورسميون وغير رسميين، يلبسون أثواب المحتسبين وشاراتهم، أو أثواب التجار والحرفيين والزراع.. وكلهم يتعامل مع الإسلام وكأنه المسؤول عنه، وعن تحقيقه في حياة المسلمين، ونشره بين غير المسلمين.

وبهؤلاء وأولئك، وغير هؤلاء و أولئك، تمور الحياة، وتتفاعل عناصر الحضارة، ويظهر العلماء والحكماء، والرياضيون ، والفلكيون، والفقهاء ، والأطباء وغيرهم...

موسوعات ضخمة لم تتوفر لأية أمة، تسمى بكتب التراجم والطبقات والأنساب؛ تضم بعض ما وصل إلينا عن أولئك العلماء الأعلام والدعاة إلى الإسلام.

إن هؤلاء هم أبرز صناع الحضارة، بل إن هؤلاء هم الذين حموا ثغور الحضارة الإسلامية، وتحملوا الثمن الباهظ الذي دفعته الحضارة الإسلامية من جراء الانحراف الذي وقع فيه بعض الحكام.

كان هؤلاء العلماء والصناع والدعاة يتفاعلون في مستواهم -صابرين محتسبين- وكان الآخرون يمضون في طريقهم...

وكان بين المستويين خطوط تفاعل، وخطوط تصادم، ومناطق حياد!!

ففي العهود يدرك فيها جهاز الحكم والدولة أهمية الاحتكام للإسلام، وقيمة ثقافة الإسلام وحضارته؛ كانت الحضارة تتوهج متفاعلة أشد ما يكون التوهج، وكانت الأمواج الحضارية تصفو وتهدأ، وتنطلق إلى غايتها مترجمة قوة الإسلام وأصالته.

وحين يجنح الحكام إلى الانحراف والظلم والاستبداد؛ كان الصدام يقع، في دائرة النفوس والضمائر في أكثر الأحايين، وفي دائرة السلاح في أقل الأحايين... لكن التيار كان يمضي ملتزما بالعقل، واعيًا بالمأزق، معتصمًا بمواقعه، مؤثرًا الفعل الحضاري على الصدام السياسي...

وثمة مناطق حياد كانت تمضي، وهي الأكثر والأغلب، لا تكاد تقترب من تأثير الحكام إلا في بعض المعابر القليلة... فقد كان القضاة والدعاة والزهاد المفكرون والمخترعون يبتعدون -قدر الاستطاعة- عن مناطق الصدام، وكان الحكام- في بعض الأحايين – هم الذين يحتاجون إليهم، ويسعون إلى أن يقترب هؤلاء منهم، ويجرون عليهم النفقات، ويجزلون لهم الأعطيات!!

كانت هناك بالتالي أمة إسلامية... وكانت هناك مؤسسة حاكمة اسمها الدولة... أو بتعبير آخر كانت هناك (أمة دعوة) تعي رسالتها ودورها الحضاري، وتصوغ حياتها -في هدوء- وفق شريعة الإسلام....

وكانت هناك مؤسسة حكم تقوم على حراسة الإسلام، وقد تبتعد أحيانًا عن تطبيق أحكامه.

والنسبة بين الأمة والدولة؛ كالنسبة بين الأعماق والسطوح، وبين الجماعة والفرد!!

فالأمة الجماعة (جماعة المسلمين) أو (جماعة الدعوة) أو (أمة الدعوة) هي مجموع الأمة؛ التي تزيد نسبتها على تسعة أعشار الفاعلين في الحضارة، والدولة هي (أفراد) و(هيئات) أجيرة تمثل عشر الفاعلية الحضارية.

(وعلى طول تاريخ الجماعات الإسلامية -وعلى اختلاف أوطانها وأزمانها- ظلت الجماعة قائمة لها قوتها واختصاصاتها ومسؤولياتها إلى جانب الدولة.

فمعظم المشكلات والمنازعات كان الناس يحلونها فيما بينهم بالتراضي والتفاهم أو التنازل المتبادل... ومن هنا نفهم كيف أن مدنًا كبيرة -كالفسطاط أو البصرة أو الكوفة- كان لها قاض واحد؛ ولم يكن هذا القاضي -مع ذلك- مرهقًا بالقضايا؛ لأن الناس كانوا لا يلجئون إليه إلا في حالات الضرورة القصوى.

وكذلك كانت المساجد ورعايتها دائما من اختصاص الجماعة، يبنيها الأثرياء أو الناس العاديون، وتوقف عليها الأموال، لأن المساجد التي كانت تبنى بأموال الخلفاء والسلاطين كانت قليلة العدد، إلى جانب أنها كانت في بعض الأحيان مساجد سلطانية؛ لم تخل من قصد إلى الزهو وإظهار الغنى والقوة، والرغبة الشخصية في بقاء الذكر).

(ومثل ذلك يقال عن التعليم؛ فقد كان من شأن الجماعة، وقلما أنفقت الدولة شيئا عليه في شرق الدولة الإسلامية قبل العصر السلجوقي في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، باستثناء عطايا؛ كان الخلفاء والسلاطين يقدمونها للظاهرين من أهل العلم على سبيل المكافأة. وكذلك كان الحال مع مواصلات البر والبحر)([[29]](#footnote-29)).

إن هناك قضية خطيرة لم يفهمها بعض الناس، وبسبب عدم الفهم -هذا- أخطئوا في فهم الموازين الصحيحة لتقويم حضارتنا الإسلامية..!!

إنهم لم يفهموا (العلاقة) ولا (النسبة) بين الدولة والأمة، أو الدعوة والدولة في الحضارة الإسلامية، بل سقطوا في تشريح حضارتنا بالمبضع نفسه الذي شرحوا به الحضارات الأخرى، ولا سيما الحضارة الأوروبية.

- ومن هنا جاء تقويهم جائرًا وفاسدًا...

إن (الدولة) -في التجربة الأوروبية - منذ ظهرت وحتى العصر الحديث تشير إلى سلطات مطلقة، ولكنها متمركزة ضمن حدود، بيد أنه لا يمكن التمييز بين مهمتها وطاقتها؛ فالخدمات التي تؤديها تختلط مع الامتيازات التي تمارسها، وجميع أشكال العمل التي تحت تصرف الدولة هي أجهزة السلطة ووسائل الحكومة. والشرطة تحمي الأفراد، ولكن امتيازات وزير الداخلية كبيرة، والتعليم العالي ينمي المعرفة؛ ولكنه يوجه الأفكار، والمساعدة الاقتصادية والاجتماعية التي توفرها الدولة الحديثة تنطوي على مركزية مالية متزايدة([[30]](#footnote-30))...

فهنا في جسم الحضارة الأوروبية، وبالتالي تاريخها وحضارتها، كان دور الدولة هو الدور الرأس والعقل والدم... إنها تنساب في الكيان كله، وقد حاولت الكنيسة منافستها، والاشتراك معها في صياغة المجتمع وتوجيهه، وقد نجحت في ذلك حتى نهاية العصور الوسطى الأوروبية، وإن كانت قد منيت بفشل ذريع بعد فشل الحروب الصليبية؛ التي جرت الكنيسة المجتمعات الأوروبية إليها. ومع بداية العصر الحديث أفل دور الكنيسة، وانفردت الدولة خلال القرون الأربعة الأخيرة بالقيادة والتوجيه.

وبعد صراع مرير تمكنت الدولة والشعب في أوروبا من الوصول إلى صياغة خاصة بالحياة لا سيطرة فيها على الإنسان إلا للدولة...

لقد نحي كل دور آخر... وأصبح القانون هو كل شيء، وأصبحت الدولة حارسة القانون... وابتعد الدين -وبالتالي الكنيسة- عن الحياة!!

\*\*\*

لكن الأمر في الحضارة الإسلامية مختلف كل الاختلاف... فالإسلام لا تحميه طبقة معينة؛ بل هو مسؤولية الأمة كلها، وليست المساجد إلا دورًا للأمة كلها، وهي ذات وظيفة شمولية، والعلماء مجرد موجهين ومعلمين، لا يملكون أدنى سلطة. ولم يوجد في الحضارة الإسلامية صراع بين مؤسسات خاصة بالدين، ومؤسسات خاصة بالدولة؛ بل كانت الأمة كلها تستنكر انحراف الحكام... وعندما تيأس من تقويم انحرافهم كانت تبتعد عنهم، وتتولى هي بنفسها صناعة حضارتها وحفظ عقيدتها، منددة -قدر الاستطاعة- بظلمهم، عاملة -في حدود عدم الاشتباك معهم حتى لا ينهدم البناء- على إصلاحهم أو التخلص السلمي منهم.

إن النسبة هنا لنفوذ لدولة وآثارها كانت محددة ومرصودة ومعزولة...

وحتى العلم لم يكن يؤخذ باطمئنان إلا من رجال الدعوة... لا من علماء السلطة... وكانت منزلة الحسن البصري، وعبد الله بن المبارك، والليث بن سعد والعز بن عبد السلام- وعشرات غيرهم ممن عرفتهم حضارتنا- أعلى منزلة من حكام عصرهم، ومع عظمة بعضهم...

وهذه النسبة منذ قامت الأمة بأمرها، ووقع الانفصال بين السياسة والحضارة؛ لم تزد -كما ذكرنا- عن عشر الفاعلية الحضارية... وتحملت الأمة المسلمة -مبتعدة قدر الاستطاعة عن حكامها إما ورعًا أو خوفًا- عبء الفاعلية الحضارية الباقية!!

## أخطاء في الرصد التاريخي والتقويم

كانت الأمة الإسلامية -جماعة وحكومة- شيئًا واحدًا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والراشدين... وكانت النسبة بالتالي مختلطة، فالحكومة هي الأمة، والأمة هي الأمة، والأمة مندمجة في الحكومة، ويسعى بذمتهم أدناهم.

وجاء بنو أمية فقدموا خيرًا كثيرًا للإسلام والمسلمين، ووسعوا دولة الإسلام بفتوحاتهم العظمى... ولكن بعض خلفائهم غلبوا (الدولة) و(أساليبها) و(مصالحها) على حساب المجتمع و(الأمة)، ونتج من جراء تقوية (الدولة) على حساب (الأمة) في بعض الممارسات والأخطاء أن تحرك في دولتهم الصراع العنصري بين القبائل العربية؛ ليضربوا المضرية باليمنية، ثم اليمنية بالمضرية، وتسلط على الأمة مجموعة من الجبابرة، مثل الحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه، وآل المهلب، وضعفت العدالة في توزيع المال العام.

ومهما كانت الأعذار التي تلتمس لهم فقد وقعوا في أخطاء آذت الضمير الإسلامي، وجعلت وجدان الأمة يكاد ينفصل عن الدولة.

وهذه الممارسات وغيرها لم تقعد الأمة عن تحمل عبء الرسالة الإلهية والفاعلية الحضارية، وساعد على تقوية هذا الاتجاه أن التنظيم الاجتماعي للأمة الإسلامية كان لا يدع للحكومة مجالًا كبيرًا في حياة الجماعة، فكل ما نسميه نحن اليوم بالمرافق والخدمات كان من مسؤوليات جمهور الناس دون الحكومة... ([[31]](#footnote-31)).

وجاءت الدولة العباسية فمشت على خطى الأمويين؛ بل إنها فقدت بعض مؤهلات بني أمية، كما فقدت بعض الأراضي الإسلامية التي كانت تحت بني أمية أيضًا، وظهرت دول مستقلة عنها مثل: بني رستم والأدارسة وبني مدرار في المغرب، وبني أمية في الأندلس... وبالتالي ازدادت الأمة ابتعادًا عنها واعتمادًا على نفسها، حتى في ميادين الجهاد التي تقاعست فيها الدولة إلا فيما يمس سيادتها المباشرة، وتألقت جماعات (المطوعة) والمرابطين على الثغور، والمحتسبين بجهادهم... وبقي أمر الدولة محصورًا فيما يثبت قواعدها، وفي الحماية الخارجية لأرض الإسلام التي تقع تحت أيديها، وقد تعلم الناس كيف يديرون أمورهم ويحلون مشاكلهم دون الحاجة إلى عون من حكومة، خصوصًا عندما ساءت الأحوال وتدهورت خلال العصر العباسي الثاني؛ ففي العراق، ومصر، والشام -مثلًا- تحول الحكم خلال القرن الرابع الهجري وما بعده إلى أداة، وظيفتها الرئيسة جباية المال لسد حاجات رجال الدولة وجندهم([[32]](#footnote-32)).

وقد تطورت الأمور فاتجهت الظروف السياسية إلى تسليط عناصر محترفة من الجند على الحكم كالخراسانيين الإيرانيين، ثم الأتراك، ثم المماليك...

ومع هذا التطور تخلى العرب عن لعبة الصراع على الحكم، واتجهوا إلى بناء الحضارة الإسلامية، فقدموا إنجازات طيبة للحضارة الإسلامي، بعد أن أضاعوا قرونًا كاملة في المشرق والأندلس في الصراعات الدموية تحت شعار أحقيتهم في الحكم!! وارتفع شأن أصحاب الوظائف المدنية أو (أرباب الأقلام)-كما كانوا يسمون - حتى أصبحوا يناظرون الحكام والقادة والمحاربين، أو (أرباب السيوف). وعن هذا الطريق وصل الأفراد من أبناء الجماهير إلى نصيب طيب من السلطان والجاه، فإلى جانب أصحاب السلطان والقادة والجنود وحكام النواحي -وكلهم كانوا من الأجناس التي احترفت الحرب واحتكرت شؤون الحكم في العالم الإسلامي- قام ((الوزير)) و((الكاتب)) و((وكتاب ديوان الإنشاء))، و((أهل الحساب والشؤون المالية))، و((القضاة))، و((الفقهاء))، و((أهل العلم)) و ((الشيوخ))، وكان هؤلاء قابضين على نصيب كبير من زمان الحكم -فعلا- وهذا النصيب هو الذي استطاعت أن تصل إليه الجماهير في مختلف بلاد الإسلام([[33]](#footnote-33)).

وبهذا عرف أهل العلم من أبناء الشعوب الإسلامية كيف يشقون لشعوبهم طريقًا واسعة إلى القوة والجاه وسط تطاحن الأتراك والمماليك، ممن استأثروا بالحكم في الجناح الشرقي لعالم الإسلام كله. وكان لوصول أهل العلم إلى ذلك الجاه أثره الطيب في تحسين الأحوال العامة في المجتمع، فهم الذين ظلوا يتمسكون بعقائد الإسلام وشريعته، وعلومه، ومبادئه، وأخلاقياته، وتراثه المعنوي، ويذكرون الناس بالمثل الإسلامي الأعلى الذي ينبغي السعي لإدراكه!!([[34]](#footnote-34))

بل إن غير المسلمين كانوا يجدون في المجتمع الإسلامي الفرصة المواتية للعمل الحضاري أكثر مما يجدون في أي مجتمع آخر في عالم العصور الوسطى....

وعندما تحدث (ول ديورانت) عن العلوم عند اليهود ذكر أن العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود تكاد أن تنحصر كلها في بلاد الإسلام، وذلك أن المقيمين في البلاد المسيحية في العصور الوسطى-كما يقول ول ديورانت- كانوا بمعزل عن جيرانهم؛ ولهذا لجئوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجيء مسيح ينقذهم مما هم فيه، وتلك كلها ظروف هي أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيه العلم([[35]](#footnote-35)).

أما في العالم الإسلامي فقد وصل اليهود إلى أرقى المناصب، وكادوا يحتكرون حرفًا بأكملها لهم، واستفادوا من علوم المسلمين الطبيعية، وقد سيطروا على فن الطب في مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها عام (1165م)([[36]](#footnote-36)).

لكن المشكلة أن بعض كتب التاريخ العام ظلمت أعلام حضارتنا، ولم ترصد حياتهم كما رصدت حياة الحكام والعساكر... وهذا صحيح، بل هذه هي مشكلة منهج كتابة تاريخ الأمة الإسلامية حتى اليوم.

وحتى كتب التاريخ الحضاري، فقد صيغت بطريقة مجملة، فلم تتبع حياة صناع الحضارة بالتفصيل الكافي، وقد نجد ترجمة عالم كبير عاش سبعين سنة، وقدم العشرات الكتب، وخرج أجيالًا عالمة مجاهدة صانعة، ترد في مساحة لا تزيد على صفحة أو صفحتين... وقد تكون المعلومات التي فيها مركزة على النواحي العادية التي تكاد يشترك فيها كل العلماء، دون أن تقدم هذه المعلومات رحلة معاناته، وخلاصة تجاربه، وأبرز آرائه، وإطاره الفكري العالم، وإضافاته العلمية والفكرية بطريقة فوق المستوى الإحصائي والببليوجرافي....

يضاف إلى هذا أن الكتب التي عالجت -بحق- تاريخنا الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، قد اتجه بعضهما -على قلته- اتجاها متميزًا بتأثر بعض الضغوط الخارجية، فجاء كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني – مثلًا- تلبية لتوجيه شعوبي وعقدي ضد العرب، وضد أهل السنة، ولخدمة الحكم البيبهي الشيعي الذي كان قد نجح في التسلط على الخلافة العباسية.

لقد كان أبو الأصفهاني (ت 356هـ) من أحفاد مروان بن محمد من بني أمية، وكان يعيش تحت مظلة السيطرة البويهية على الخلافة العباسية... وخوفا من أن يحسب على بني أمية، ويقال أنه ناصبي يعادي آل البيت الذين يرفع شعارهم بنو بويه... لجأ إلى المغالاة في حب آل البيت، وشوه تاريخ بني أمية بكل ما تستطيع من وسائل، وكتب الأغاني بأمر من وزير معز الدولة البويهي (إبراهيم بن عبد الله بن زيد) الذي كان أبو الفرج من أقرب ندمائه الملتصقين به، وكان الناس في ذلك العهد -كما يقول ياقوت الحموي في ترجمته لأبي الفرج- يحذرون لسانه، ويتقون هجاءه، ويصبرون في مجالسته ومعاشرته ومؤاكلته ومشاربته على كل صعب من أمره؛ لأنه كان وسخا في نفسه ثم في ثوبه ونعله (...)([[37]](#footnote-37)).

ومع ذلك فإن مؤلفات ابن قتيبة وابن عبد ربه، على ما فيها من تجاوزات -بالإضافة إلى كتب أخرى- كلها رصدت الحياة الاجتماعية؛ لكن كتب أبي الفرج تمثل -مع قدر كبير من التحفظات- أكثر مؤلفات رصدت الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للأمة الإسلامية في عصره، وحسبنا أن نذكر مؤلفاته -غير الأغاني- لنعرف كيف أنه تطرق إلى موضوعات كثيرة غير التاريخ السياسي، فمن مؤلفاته: مقاتل الطالبيين، وكتاب أخبار القيان، وكتاب الإماء الشواعر، وكتاب المماليك الشعراء، وكتاب الأدباء الغرباء، وكتاب أدب السماع، وكتاب أخبار الطفيليين، وكتاب مجموع الأخبار والآثار، وكتاب الخمارين والخمارات، وكتاب الفرق والمعيار في الأوغاد والأحرار، وكتاب دعوة النجار، وكتاب أخبار جحظة البرمكي، وكتاب جمهرة النسب، وكتاب نسب بني عبد شمس، وكتاب نسب بن شيبان، وكتب نسب المهالبة، وكتاب نسب بني تغلب، وكتاب الغلمان المغنين، وكتاب مناجيب الخصيان؛ عمله للوزير المهلبي في خصيين مغنيين كانا له. وله بعد تصانيف جياد كان يصنفها ويرسلها إلى المسؤولين على بلاد المغرب من بني أمية، وكانوا يحسنون جائزته، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل([[38]](#footnote-38)).

وهناك قدر من التحيز الفكري يمكن أن يوجه -بدرجة ما- إلى كتب الجاحظ، مع أنها من أفضل الكتب في التاريخ الاجتماعي الإسلامي.

وقد تكون أنقى الكتب وأوفاها في هذا المجال، كتب الرحالة والجغرافيين كابن بطوطة، والبكري، وابن جبير، وابن فضلان، ومؤلفاته الحسبة، وكتب الفتاوى والفقه، والكتب المتخصصة في السياسية الشرعية، والأموال، والتجارة، والمسالك، وطبائع الملك، وشؤون المعاش، وأنواع الصناعات مثل كتب الأطباء العلمية ومؤلفاتهم في الصيدلة، والحيل والفلك.. فضلا عن التراجم والرجال والطبقات التي تعتبر من أكبر المناجم التي يغترف منها في حقل التاريخ الحضاري للأمة الإسلامية... ذلك التاريخ المظلوم الذي يحتاج إلى أن تتجه إليه الجهود -فردية وجماعية- من جديد... إبرازا للتاريخ الحقيقي للمسلمين، وتحديدًا للمكانة الحقيقية لشريعة الإسلام في تاريخ المسلمين، وفي صياغة حياتهم، وصناعة تطورهم وحضارتهم.

ومع هذا الظلم الذي لحق بالتاريخ الحضاري للأمة الإسلامية، ومع أن كتب التاريخ الإسلامي بصفة عامة ركزت على التاريخ السياسي الذي يتصل بنسبة قليلة محددة تمثل البنية الفوقية الحاكمة....

ومع هذا فإن هذه الكتب لم تخل من تقرير لحقيقة الدور الذي قام به صناع هذه الحضارة من علماء ومفكرين، وإن جاء ذلك بطريقة غير مباشرة وإجمالية... فعندما تقرأ الكتب الأساس للتاريخ الإسلامي -ابتداء من الطبري، وحتى تاريخ الجبرتي- نرى خط العلماء موازيًا ومضاهيًا لخط الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم

وباستثناء الحكام الصالحين الذي لم يخل منهم عصر من العصور، ولا دولة من الدول كمعاوية، وعبدالملك، والوليد، وعمر، وهشام في الدولة الأموية، وأبي جعفر، والمهدي، والرشيد، والمأمون، والمعتصم في الدولة العباسية.

وباستثناء الممتازين في الأندلس مثل الداخل، وهشام الرضا، وعبد الرحمن الأوسط والثالث، والحكم المستنصر... والممتازين في المغرب كبعض ولاة المرابطين وبعض الموحدين... وبعض ولاة بني مرين، وبني حفص، وبني زيان...

وباستثناء بعض الممتازين -كذلك- وهم كثيرون في السلاجقة، ثم كبار الأتابكة الحكام والعلماء مثل عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي الكردي، ثم كبار المماليك من أمثال سيف الدين قطز ، وركن الدين بيبرس، وسيف الدين قلاوون، وابنه الناصر محمد وغيرهم...

وباستثناء بعض الحكام العثمانيين وعلى رأسهم محمد الفاتح، والسلطان عبد الحميد... باستثناء هذه الطبقة من كبار الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم، نجد أن معظم ما نال الشعوب الإسلامية من خير كان الفضل فيه راجعًا إلى أهل العلم، سواء من ولي منهم المناصب، ومن اكتفى بجاه العلم وقنع بركن في دار أو في مسجد؛ ومضى يدرس، ويؤلف، ويعلم الناس، ويخاطب أهل الحكم في مصالح المسلمين، ويرد الأذى عنهم[[39]](#footnote-39)

## العلماء العاملون هم قادة حضارتنا

لقد فهم العلماء في حضارتنا أنهم مسؤولون عن الأمة، وأنهم داخلون في أولي الأمر، ويؤكد ذلك أن التفسير الشائع في حضارتنا لقوله -تعالى-: ((وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)) [النساء:59]، وأن أولي الأمر هم ((الرؤساء وأهل العلم))([[40]](#footnote-40))، ومن هنا كان مشايخ الأزهر وأساتذة القرويين والزيتونة هم طلائع النهضة ، وأبطال الاستقلال ودعاة الأصالة، والمحافظين على مصالح الناس.

وقد أنكروا على الولاة الظلمة، ووقفوا مع العامة، وكانوا سببا في إقالة ولاة وفي تثبيت آخرين([[41]](#footnote-41)).

وبينما ارتبطت الكنيسة ورجالها في التاريخ الأوروبي بالعداء للشعب، والوقوف مع السلطة ومقاومة الفكر والحرية، والتقدم؛ كان الأمر على عكس من ذلك في حضارة الإسلام، فقد كان علماء الإسلام هم قادة الشعب، ورواد التحرير والنهضة الحقة... وكان طبيعيًا أن يكون الأمر كذلك؛ لأنهم جزء من الشعب لا يملكون سلطة كهنوتية، ولا يتفوقون على الشعب إلا بعلمهم وجهادهم الأكبر والأصغر... بينما الشعب كله (رجال الدين)، وبالتالي فالشعب مثلهم يتحمل-قدر طاقته- جزءًا من المسؤولية، وله الصلاحيات الكاملة في أن يحاسبهم، ويرفض عملهم وفتاواهم إن خانوا مبادئ الإسلام، وأصبحوا مجرد موظفين لدى السلطة، داخلية كانت السلطة أو خارجية.

وقد كان الشعب دائمًا يشعر بمسؤوليته عن الحضارة الإسلامية، وكان دائمًا يملك القدرة على التفرقة بين (علماء الإسلام) و(علماء السلطان)، و(فقهاء الحق)، و(فقهاء المصلحة)... وكانت بغداد في عصر عظمتها تخرج كلها لتستقبل العالم الزاهد عبد الله بن مبارك بدرجة أكبر مما تستقبل به خليفتها، حتى إن أم الخليفة عجبت للأمر وقالت: هذا هو الملك... إنه ملك لا تدفع إليه منفعة مالية ولا شرطة عسكرية!!

كان نسيج المجتمع كله يبنى على الإسلام... وحتى الفئة الحاكمة، كان للإسلام وجود في حياتها، على الرغم من تفلت بعضها في بعض الأحيان... أما الشعب الذي يصنع الحضارة فقد كانت القوانين والنظم والتقاليد التي تحكمه مستقاة من الإسلام.

وإذا كان من الضروري للمجتمع الإنساني، ولأفراد المجتمع من ضوابط يتقيدون بها، وتحكمهم بوصفهم كائنات اجتماعية؛ فإن الضوابط والقوانين والأخلاقيات وشبكة العلاقات الاجتماعية التي كانت تحكم المجتمع الإسلامي هي الشريعة الإسلامية، ومهما تكن ضغوط بعض الحكام فإن المجتمع كان يحمي شبكته من سلبياتهم، ويقاوم بالوسائل الإسلامية المشروعة انحرافاتهم، وقد يتمكن من تعديل مسارهم، وتقويم اعوجاجهم، مثلما نجح العز بن عبد السلام في إصلاح شأن المماليك، ومثلما نجح - قبله - رجاء بن حيوة من إصلاح شأن سليمان بن عبد الملك، وحمله على تولية عمر بن عبد العزيز، ومثلما نجح المنذر بن سعيد البلوطي - في الأندلس - في إصلاح بعض أخطاء الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث (الناصر).

وإذا كان المجتمع الأوروبي قد خضع في علاقاته لنوع من الميكافيللية، والمادية التي جعلته يستخدم الدين، والأخلاق، والمبادئ الإنسانية (وسائل) إلى غاية غير شريفة في حقيقتها؛ فإن المجتمعات الإسلامية قد ظلت تهيمن عليها المفاهيم الأخلاقية المنبثقة عن الشعور الديني الصحيح، وظلت هذه المفاهيم هي المتحكمة في عالم الفكر، والأخلاق والقيم، وهي الراسخة في ضمير الشعب المسلم([[42]](#footnote-42))، وبالتالي فالذين كتبوا تاريخ الإسلام من خلال النظرة الميكافيللية قد تاهوا وتاه معهم كل من تبعهم (...) فالعمل الحضاري - وبعض السياسي - ظل مرتبطا بالشريعة([[43]](#footnote-43)).

## العلم والعمل دعامتا العمل الإسلامي

وقد قام المجتمع الإسلامي - في إطار الشريعة - على دعامتين أساسيتين تمثلان قوام التطور والبقاء... وهما:

* العلم...
* والعمل...
* والربط بين العلم والعمل هو الروح الحقيقية الفاعلة والمؤثرة...
* والعلم شمولي يضم ما ينفع الدنيا وما ينفع الآخرة... ولا شيء عند النظر الإسلامي الصحيح يسمى بعلوم الدين، أو علوم الدنيا؛ فكل علم نافع هو علم دين وعلم دنيا، وكل علم ضار هو علم غير إسلامي، ولن ينفع الدين، ولن ينفع الدنيا، بل إن (العلم الواحد) قد يكون - وفق منهجية معينة - علما إسلاميا، وبالتالي نافعا للدين والدنيا، وقد ينقلب نفسه إلى علم غير إسلامي إذا خضع لمنهجية جدلية، أو جمد عند إطار معين، أو أخذ حجما أكبر من حجمه في إطار منظومة المعرفة الإسلامية، وإشعاعاتها المحددة في الحياة.
* إن علم الطب قد يكون علم دين عندما يلتزم بالمنهج والأخلاق والغاية وينفع الناس... بينما يصبح (علم الكلام)، أو (علم الفقه) علم دنيا إذا حاد عن المنهج وفقد أخلاق الإسلام وغايات الإسلام، ولم يعد نافعا للناس؛ بل أصبح تبديدا لطاقتهم، وترفا في فكرهم، ومركبا ذلولا لأطماع الدنيا وأهواء الحكام.

وفي ضوء هذا الوعي بأهمية العلم الشمولي الذي ينظر في النفس والآفاق، ويقدر الله حق قدره...

وفي ضوء الربط بين العلم والعمل، والإيمان بأن العمل ضرورة لا مناص منها، وأنه داخل في العبادة، وفي عموم الهدف الأعلى للحياة الذي يحدده قوله - تعالى - **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** **(56)**  [الذاريات: 56]، وتمثلا بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الذين جمعوا بين العبادة والعمل والجهاد في معادلة متكاملة منسجمة رائعة...

* في ضوء هذا الوعي بقيمة العمل القائم على العلم، انطلق المسلمون يعمرون الكون، ويتفوقون في الحرف والصناعات، ويزرعون ويتاجرون ويشتغلون بكل العلوم النافعة، أو بتعبيرهم الإسلامي {{العمل الصالح}} أي القائم على الصلاح والصلاحية، وبما أن العمل يستلزم لطبيعة أدائه معرفة الظروف والوسائل والإمكانات والغايات، ولا يستقيم له أن يكون صالحا إذا كان ضربا من الخبط في الظلام أو الانسياح مع هوى أو وهم، أو عصبية([[44]](#footnote-44))؛ لأنه يستلزم ذلك فقد التزم المسلمون في عملهم ـ في حدود الممكن البشري - بالمواصفات الإسلامية للعمل الصالح.

وهذه واحدة من المعالم الرئيسة في تفسير الإسلام للتاريخ، وفي المنظومة التي يقيم عليها بناءه للحضارة وضماناته لاستمرارها: إنها تتلخص في أن يعمل الإنسان بوحي من العقل، وفي ضوء المعرفة، على تحسين المسير وتفادي السوء، والقيمة الحقيقية إنما هي للعمل الصادر عن فكر نير في سبيل غاية شريفة...([[45]](#footnote-45)) إنه الوحي والعقل، والصلاح والصلاحية، والعلم والعمل؛ في نسيج واحد...

* ولقد كان لمفكري الإسلام على امتداد التاريخ يد طولى وأساسية في نشر هذا الاعتقاد السائد اليوم، وهو: (إن التاريخ البشري الناشئ عن تفاعل عدد لا يحصى من العقول الإنسانية، ينبغي أن يكون خاضعا لقوانين بسيطة يمكن أن تدركها تلك العقول)([[46]](#footnote-46))، وبالتالي فقد كان لدى المسلمين نظرة عملية للتاريخ ترتبط بالفكر، وليست مجرد نظرة فلسفية هائمة أو حالمة، وهي نظرة عملية قائمة على ثوابت الوحي واجتهادات العقل.

وإذا كان القرآن كثيرا ما يضيف إلى (الذين آمنوا) وصف العمل الصالح (وعملوا الصالحات) فإن المسلمين قرنوا العلم بالعمل في الناحية الروحية، وكذلك امتازوا بتطبيق النظريات الكونية على التجارب العملية، وكانت هذه الخصلة القويمة فيهم نفحة من نفحات دينهم، فلم يمض عليهم ردح من الزمن حتى أصبحوا أئمة العلم والعمل في الأرض([[47]](#footnote-47))، وقد شهد لهم كبار الأجانب بهذه المكانة فقال العلامة الفرنسي (غوستاف لوبون) في كتابه حضارة العرب:

{{إن العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع، فقد أكسبت علومهم صنائعهم جودة عظيمة جدا، وإننا وإن كما لم نزل نجهل أكثر الطرائق التي سلكوها لذلك، فإننا نعرف نتائجها وآثارها، فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم، واستخرجوا منها الكبريت، والنحاس، والزئبق، والحديد، والذهب، وبرعوا في الصياغة وصقل الفولاذ، وبرعوا في كثير من فنون الصنائع براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن}}([[48]](#footnote-48)).

* ولم يتخلف المجتمع الإسلامي - وبعد أكثر من عشرة قرون من التفوق - إلا حين انفصل العلم عن العمل، ومن ثم أهمل العلم... وأهمل العمل؛ أما خلال قرون ما قبل التبعية والوقوع تحت ضغط الغزو الفكري ومشروعات الإبادة الحضارية، فقد كانت الروابط الإسلامية تحكم المجتمع الإسلامي (مع وجود الهنات البشرية) على مستوى المسجد، ومستوى الجيران، ومستوى الأرحام، ومستوى القربى، ومستوى العائلات والقبائل، ومستوى الأحياء في المدن، ومستوى الشعور الإسلامي الذي ينظم الأمة الإسلامية كلها...

ونسيج هذه الروابط تجمعها شريعة حاكمة، تقوم على العلم والعمل والوحي والعقل، والتعاون والتكامل، وليس التنافر والصراع.

ومن عجب أنه بينما لم يحسن بعض المؤرخين فهم تاريخ المجتمعات الإسلامية، ولا النظر الدقيق لمحركاتها وإيجابياتها، ولا الوصول إلى تحليل سليم لمكوناتها وعناصرها الحية... ولا التأريخ ليوم واحد كامل من أيام فرد مسلم، أو عائلة مسلمة، أو قرية مسلمة، منذ صلاة الفجر وشروق الشمس، وحتى تنام هذه الأسرة بعد صلاة العشاء... إنهم لم يفعلوا ذلك، ويرصدوا نصيب شريعة الإسلام في حياة المسلمين... أفرادا أو جماعات... في مستوى الالتزام الواعي -في الحياة الاقتصادية-ـ بالنظام الإسلامي في المعاملات... وفي مستوى (المسجد) عبادات وثقافة وعلاقات اجتماعية... وفي مستوى الأسواق، ودور المحتسبين فيها... وفي مستوى (الكتاتيب والمساجد) والنشاطات العلمية الموجودة فها... وفي مستوى المسلم، وعلاقة الزوجة بزوجها والأبناء بآبائهم، والأرحام، والجيران... وفي مستوى الأحوال الشخصية، وتأثيرها في بناء البيت المسلم وفي صياغة أفراحه ونظام تكوينه للأسرة... وأيضا في إخضاع البيت المسلم لشريعة الإسلام في شتى أحواله... عند الزواج، وعند الخلاف، وعند الموت وما يتبعه من ميراث إسلامي... وفي مستوى الأخلاق والروح العامة التي تحكم هذا المجتمع وتصوغ أطره وعلاقاته... إلا أنهم ذهبوا يحكمون على الحضارة الإسلامية من خلال رصد عاجز لشريحة واحدة، لا ترتفع فاعليتها لأكثر من عشر فاعلية الشرائح الأخرى التي صنعت حضارتنا، وهي شريحة الحكام...

بينما هذا -بصفة إجمالية- على مستوى المؤرخين والمنظرين المسلمين، نجد كثيرا من المؤرخين الأوروبيين (المنصفين) قد أحسنوا رصد الحياة الاجتماعية وأثر الإسلام فيها، واعترفوا بالمكانة الكبيرة والأساسية والقوية للشريعة الإسلامية في حياة المسلمين خلال تاريخ الحضارة الإسلامية الطويل... يقول المؤرخ الكبير (ول ديورانت): كان المسلمون كثيري التفكير في ربهم، وكانت مبادئهم الأخلاقية، وشريعتهم، وحكومتهم قائمة كلها على أساس الدين. والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويتطلب الجزء الثاني من هذا الأساس الإيمان بالقرآن، وبكل ما جاء به من أوامر ونواه، والمسلمون الصالحون لا يعملون بما ورد في القرآن وحده؛ بل يعملون أيضا بالأحاديث والسنن النبوية التي احتفظ بها علماؤهم على مر الأجيال والقرون؛ ذلك أن المسلمين قد يواجهون على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد، والعبادات، والأخلاق، والتشريع، لا يجدون لها جوابا صريحا في القرآن. كذلك وردت في القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول، وتحتاج إلى إيضاح، ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبي أو الصحابة، وما قالوه في أمثال هذه الموضوعات، ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث، وأنشئوا مدارس للحديث في مختلف المدن يلقون فيها دروسا عامة في الحديث والسنن النبوية([[49]](#footnote-49)).

ويعزو (ديورانت) سبب إسلام الشعوب المختلفة إلى تسامح المسلمين وتمسكهم العملي أمامهم بدينهم، فيقول: وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتجها المسلمون الأوائل، أو بسبب هذه الخطة؛ اعتنق الإسلام معظم المسيحيين وجميع الزراداشتيين والوثنيين إلا عددا قليلا منهم، وكثيرون من اليهود في آسيا، ومصر وشمال إفريقيا، فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة، وكان في وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان، واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لسانا لهم، ولبسوا الثياب العربية، ثم انتهى الأمر بأتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام، وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي؛ في هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد، وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصا واستمساكا أنساهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين، وإندونيسيا، والهند، إلى فارس، والشام، وجزيرة العرب، ومصر، والى مراكش، والأندلس، وتملك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والأنفة([[50]](#footnote-50)).

* وبعد أن يخلص (ديورانت) من خلال سرده التاريخي المطول المتعمق؛ ينتهي إلى رأي تاريخي مقارن في الأثر الايجابي الفريد للشريعة الإسلامية في الحضارة... فيقول:

{{ولا يسعنا إلا أن نسلم، مع بعض التحفظات - بأن الخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله، ولقد كان في مقدروهم أن يصادروا كل شيء، أو أن يخربوا كل شيء كما فعل المغول أو المجر، أو أهل الشمال من الأوروبيين؛ لكنهم لم يفعلوا هذا؛ بل اكتفوا بفرض الضرائب. ولما فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلي نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين، وأيده الخليفة في هذا الرأي وأمره أن يتركها في أيدي الشعب يتعهدها فتثمر. وفي زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضي، واحتفظت الحكومة بسجلاتها، وأنشأت عددا كبيرا من الطرق وعنيت بصيانتها، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها}}([[51]](#footnote-51)).

ومع تقديرنا لما كتبه ديورانت، وما كتبه غيره من أمثال أرنولد توينبي (ت 1975م) في كتابه (موجز دراسة للتاريخ) وغوستاف لوبون (ت 1932م) في كتابه حضارة العرب([[52]](#footnote-52))، وآدم متز (ت 1917م) في تأريخه لحضارة العرب والمسلمين في القرن الرابع الهجري (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)... فإن ما كتبه هؤلاء ـ ومن في مستواهم ـ لا يرقى إلى ما كتبه سير توماس أرنولد (1864 – 1930م) في كتابه الرائع (الدعوة إلي الإسلام)...

ولعل محاولتي الدكتور حسين مؤنس في كتابه (عالم الإسلام) و(الإسلام الفاتح) هما - في الجانب الإسلامي - المحاولتان القريبتان من المنهج الصحيح لتاريخ حضارتنا... وهما ـ ولا سيما ثانيتهما ـ تسيران على خطى محاولة أرنولد في تاريخ الدعوة إلى الإسلام... وليس في تاريخ بعض الحروب، أو بعض الحكام، أو بعض صور النزو على السلطة من بعض قطاع الطرق والمزورين لإرادات الشعوب، والمزيفين لحقائق التقدم وقوانين التحضر!!

إنها رحلة طويلة... رحلة كتابة تاريخنا الحضاري، بعيدا عن المنطقة البشرية ذات الصورة المعتمة التي أتاحت الفرصة لبعض المغرضين كي يظلموا هذا التاريخ... حقا إنها منطقة مظلمة... لكنها محددة، وثمة مساحات مظلمة تفوقها أضعافا مضاعفة في كل تواريخ البشرية... لكن تفرد حضارتنا أنها في مساحتها الوضيئة الأخرى - الأكبر والأشمل - لم يستطع أن يصل أي تاريخ إلى مستوى إنسانيتها ورحمتها وعدلها، وتوازنها، وشعورها بالمسؤولية الحضارية تجاه البشرية.

* لقد كانت حضارة الرحمة، والعدل، والعلم، والعقل، والعمل، والضمير، والقلب...
* وبغير روح وعقل وعمل لن تقوم حضارة إسلامية، ولا سيما في عصرنا الحديث !!
* والتحدي الذي يواجهنا اليوم هو أن نعمل كما يعملون هناك في اليابان، وأوروبا، وأمريكا، وكوريا (عشر ساعات في اليوم)... ونمزج عملنا المادي بعناصر حضارتنا الإسلامية بمعادلاتها المتفردة... وفي مشكاتها الربانية... **يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ**  [ النور: 35 ].

\* \* \*

## الشريعة الإسلامية ومكانتها

## في تاريخ المجتمع الإسلامي

يظن بعض السطحيين أن تطبيق القيم الإسلامية قديما أو حديثا؛ يرتبط بدولة أو مجتمع أو شعب ملائكي... فكأن تطبيق الشريعة في رأسهم مفتاح سحري يلغي الجانب البشري، ويقضي على النوازع المادية والغرائزية.. !!

إن هذا قد يجوز بالنسبة إلى قلة ذات فطرة واستعداد معينين؛ لكن المجموع البشري يعيش الصراع الداخلي بين الخير والشر، ويرتفع ويهبط، ثم يتوب ويرتفع، ويخلط العمل الصالح بغير الصالح.

بيد أن هناك ضمانتين استحق بهما المجتمع الإسلامي، وهذا التاريخ الإسلامي أن يكونا تاريخا ومجتمعا إسلاميا، وهاتان الضمانتان ترتفعان بهذا المجتمع عن مستوى أي مجتمع بشري آخر.

**الأولى:** أن هذا المجتمع مرتبط بأصلين ثابتين لا يمكن تحريفهما عن موضعهما بتأثير سلطة فوقية عقدية (بابوية)، أو سلطة عسكرية أو سياسية حاكمة... فالقرآن والسنة فوق عبث العابثين وجبروت المتجبرين... وهذه هي الضمانة الأولى التي انبثق عنها - في مجال التطبيق والفكر معا - أن أصبح محمد (عليه الصلاة والسلام) - صاحب السنة القولية والفعلية - هو الإمام النموذج لهذا التاريخ وحضارته الإسلامية. على المسلمين ـ إن كانوا مسلمين حقا ـ أن يعيدوا عبر كل مراحل التاريخ تقويم حياتهم الفكرية والأخلاقية والإنسانية؛ لتقترب من نموذج هذا النبي (القدوة العملية والقرآن المتحرك الحي)... وقد عاش سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) كل أطوار الواقع البشري... فسالم وحارب، وتزوج وأنجب، وعاشر الأغنياء والفقراء، والخدم والعبيد والنساء، ومرض وعوفي، وباع واشترى، وعامل الصغار والكبار، ودخل الأسواق...

وبإيجاز قدم شخصية واضحة كل الوضوح تجمع بين البشرية والنبوة، تهتدي البشرية بالنبوة؛ ولكن تبقى النبوة في دائرة العصمة، التي لا يطالب الناس بها، وتصبح البشرية المهتدية بالنبوة مجالا للاقتداء والسباق بين الناس...

أما الضمانة الثانية لهذا المجتمع الإسلامي: فهي الرأي العام - رأي جمهور الأمة - الذي يبقى - في ضوء فطرته التي امتزجت بالشريعة - داعيا للمعروف، ومنكرا للمنكر، مهما كان السلوك مغلوطا... ومهما كان ضغط بعض الحكام وبعض الأوضاع وبعض دعاة الإفساد؛ فالمجتمع المسلم يبقى منكرا للزنا، وللخمر، وللربا، وللاستغلال، والشذوذ الجنسي، ولم يسمح قط - في عرفه أو إجماعه ـ بإباحة شيء مما أباحته بعض الحضارات، وآخرها الحضارة الغربية؛ التي تبيح اللواط، والزنا، والربا، والخمور، والتفرقة العنصرية، واستنزاف ثروات الشعوب، والكذب على أنبياء الله، واستئجار عقول بعض المزيفين من أبناء الحضارة المغلوبة، وذلك لتشويه حضارتهم، والتجني عليهم !!

لقد كان هذا الرأي العام المسلم (ضمانة طبيعية) تعصم المسلمين من التفرق الفكري والعقدي والتشريعي، ومن الضلال الأخلاقي - بصفة عامة - مهما استبد الجهل بالمسلمين، وكان من نتيجة هذا الرأي العام المسلم أن المسلمين الأوائل لم يقلدوا كل داعية -كما تفعل المجتمعات الغربية- {{وإنما اختاروا -بوعيهم الإيماني- من بين آلاف الدعاة ومئات المجتهدين عددا محصورا أولوهم الثقة، وانتظموا وراءهم، ونظموا أنفسهم، ولم يسمحوا ـ في الإفتاء ـ بمجال للفوضى}} ([[53]](#footnote-53)).

وفي ظل الثوابت والإجماع والحس الإسلامي العام، انطلقت الأمة الإسلامية في رحلة صناعة تاريخها وحضارتها، تواجه كل عصر بما يحتاج إليه تحدياته، وتزودها الثوابت بالأسلحة، ويحكم حركتها الرأي العام، وكانت تفرق دائما بين مجالي النص والرأي، والشريعة والفقه، وما يقبل الاجتهاد وما لا يقبله... ومعلوم أن التطبيق إنما يأتي تلبية للواقع العملي، ولما كانت الحالات الاجتماعية لا تتكرر أبدا في التاريخ؛ إنما تتشابه مجرد تشابه، فإن أي حكم تطبيقي في حالة مضت، وليس من شرع الله ولا من عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إنما يصلح للاسترشاد به في الحالات المشابهة، التي تعرض للأجيال المتجددة، ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق؛ لأنه مجرد رأي بشري في شريعة الله، وليس جزءا من الشريعة الثابتة الصادرة من الله ([[54]](#footnote-54)).

فهكذا كان الميزان ثابتا... وحول هذا الميزان نشأ في كل عصر مجتهدون، وأئمة عرفنا بعضهم؛ لكن أكثرهم لا يعرفهم إلا أهل الاختصاص...

أما على مستوى ارتباط التاريخ الإسلامي -بصفة عامة- بشريعته؛ فإن هذا الارتباط هو الذي صنع نسيج العلاقات الاجتماعية في شتى المستويات والتعبيرات، دون أن يعني ذلك جمودا عندا أشكال معينة؛ بل إن تنوع المجتمعات، وتغير العصور الذي هو الترجمة الصحيحة لصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان... هذا التنوع قد مكن المسلمين - في ظل الثوابت والرأي العام بحسه الإسلامي - من أن يبدعوا أنماطا حضارية مختلفة الشكل والتعبير؛ لكنها ذات روح واحدة، وإن الصور التاريخية للمجتمع الإسلامي لا تحدد ولا تستوعب كل الصور الممكنة للمجتمع الإسلامي، فلكل جيل أن يبدع نظمه الاجتماعية في حدود المبادئ الإسلامية، وأن يلبي حاجات زمانه باجتهادات فقهية قائمة على الأصول الكلية للشريعة، على شرط اتباع مناهج صحيحة في الاجتهاد، والاتفاق بين جمهور فقهاء الأمة الإسلامية في كل جيل؛ بحيث لا تدع الأمر فوضى لكل من شاء كيف شاء([[55]](#footnote-55)).

لقد كان المجتمع الإسلامي إسلاميا مرتبطا بالشريعة، ولو لم يكن كذلك لظهر فيه مجتهدون يبيحون ما حرم الله، كما وقع في المجتمعات الغربية؛ التي أباحت زواج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة، وتقنين الشذوذ الجنسي، ودعوة جمعياته... وهي المجتمعات التي يخطئ بعض المؤرخين ويطلقون عليها (مجتمعات مسيحية)... فعلى الرغم من الثروة الفقهية الإسلامية الهائلة، لم نجد مذهبا فقهيا - أو مجتهدا ما - يبيح زواج الرجل بالرجل، كما باركت المجتمعات المسماة بالمسيحية العلمانية ذلك، ولم نجد أي مذهب فقهي - ودعنا من الخارجين على الإسلام، أو المأجورين من قبل دين آخر، أو نحلة أخرى - يبيح الزنا، أو الربا، أو الخمور، أو الدعارة الرسمية!!

ومن البديهيات أن المسلمين عاشوا حياة اجتماعية عبر أماكن شاسعة، وبصورة كثيرة، وأن هذه الحياة الاجتماعية قامت على نظم أسرية، وعلى عادات وتقاليد، وعلى أنماط من العلاقات الموجهة من قبل المبادئ المسيطرة... وقد كانت لهؤلاء المسلمين بالتأكيد نشاطات يتكسبون منها - زراعة أو صناعة أو حرفا أو تجارة، أو مهنًا عقلية وثقافية - كما كان لهم بالضرورة أسواق للتبادل والبيع والشراء!

وفي تلك العصور ونتيجة تخلف المواصلات كان مستحيلا أن تعيش أمة عالة - في أساسات حياتها - على أمم غيرها؛ ولذلك كان على المجتمع الإسلامي أن يعمل، وأن يكفي نفسه على الأقل، وإلا تعرض للفناء، ولقد بقي المجتمع الإسلامي - على الرغم من كل ما وقع فيه من انحرافات - بعيدا عن صورة الإقطاع الأوروبي الذي يملك فيه الإقطاعي الأرض ومن عليها من عبيد الأرض؛ الذين لا يملكون حق الانتقال إلا بإذن السيد، كما كان الحال في العصور الوسطى، وكان الذي حماهم من {{حتمية}} الإقطاع - ماركسيا-ـ تحاكم ذلك المجتمع إلى شريعة الله، برغم كل الظلم الناشئ من تجاوز بعض حكامهم، فيما يتعلق بأشخاصهم لحدود الله؛ ولكن الناس - في ظلهم - يتحاكمون فيما بينهم بشريعة الله ([[56]](#footnote-56)).

وقد بقى المجتمع المسلم - بالرغم من كل ما وقع فيه من تجاوزات- مجتمعا يحرص على نشر العلم، ويفتح المدارس، ويوقف عليها من الأوقاف ما يكفل للمعلمين والمتعلمين معاشهم من سكن وملبس ومطعم، وذلك قبل أن تنهض أوروبا نهضتها وتعرف قيمة العلم.

وبقى المجتمع - رغم كل انحرافاته - نظيفا إلى حد كبير من الفاحشة الخلقية، بسبب التزامه بتعاليم دينه في أمر الحجاب، ومنع الاختلاط والتبرج، وفي أمر الزواج المبكر، وبقى مجتمعا متآخيا متكاملا مترابطا... يخرج المسلم فيه من المغرب حتى يصل إلى إندونيسيا لا يوقفه حاجز واحد من جواز الحدود السياسية أو {{القومية}} أو {{الوطنية}}... فقد كان فوق كل ذلك!!.

وبقى - برغم كل ما اعتوره من اضطراب الأرض عند ضعف سلطان الدولة - أقل مجتمعات الأرض جرائم، وأكثرها طمأنينة وأمنا وبركة ([[57]](#footnote-57)).

وكان للمرأة المسلمة مكانها ونصيبها في صناعة هذه الحياة الاجتماعية في إطار الشريعة الإسلامية التي تؤكد على أن بناء الإنسان - رجلا أو امرأة - هو أول الأبنية في صناعة الحضارة، وأن التضحية بوظيفة بناء الإنسان - عن طريق هدم الأسرة ـ تمزيق للبناء الاجتماعي كله، وقد ضمت كتب التراجم والطبقات، وأعلام النساء ما يؤكد وجود المرأة في الحياة الإسلامية وجودا بناء تحكمه شريعة الإسلام.

ونحن لا نريد أن نسهب في الحديث عن موضوع (الرق) والموالي بصفة عامة، إلا أننا نستطيع القول بأن المجتمع الإسلامي كان مجتمع أحرار، وأن باب الحرية كان مفتوحا أمام كل من يشعر في نفسه بقدرته على تحمل أعباء الحرية ومسؤوليتها، وذلك عن طريق (حق المكاتبة) الذي يذهب بعض الفقهاء إلى أنه حق للعبد، وأن على السيد أن يستجيب للرقيق متى طلب المكاتبة، وأن على المجتمع الإسلامي أن يساعد العبد في الحصول على حريته!! وأن يدفع له من المال ما يعينه على تحقيق ذلك، كما جاء في آية: **لَيْسَ الْبِرَّ** **تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا** **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(177)** [البقرة: 177].

لقد حرر الإسلام الإنسانية كلها نفسيا وفكريا وتشريعيا؛ عندما جعل العبودية لله وحده، وأرسى الحقوق الإنسانية العامة.

فلقد كان العبيد يقفون مع السادة في المساجد سواء بسواء، وقد استطاعت أعداد كبيرة منهم أن تحتل مناصب رفيعة؛ بل أن تشكل دولا خدمت الإسلام كثيرا، وأن تكون جيوشا دافعت عن عقيدة الإسلام وبلاد المسلمين في معارك خالدة... وهذا يؤكد ما قلته من وجود أرضية فكرية ونسيج نفسي وأخلاقي وتشريعي يسود هذا المجتمع، بصرف النظر عن الوظيفة الاجتماعية للطبقات المختلفة!!

وفي إطار هذه الحياة الاجتماعية الشاملة والعادلة كانت للمسلمين مساجدهم التي كانت تقوم بدور قائد، ولم تكن مجرد دور للعبادة؛ إذ إن هذا المفهوم الذي يؤدي إلى (الرهبنة) والانعزال أو الانسحاب لم يعرف في الإسلام، لا في داخل المسجد ولا في الحياة الاجتماعية كلها... فالمسجد يتفاعل مع الحياة، والأرض كلها مسجد تخضع لقيم الإسلام، وتهدف إلى عمارة الأرض؛ لتحقيق عبادة الله، ونشر عقيدة توحيد الله في الأرض... وعندما نريد الحكم على مدى إسلامية هذه الحياة الاجتماعية -أو الحكم بعدم إسلاميتها- فإننا يجب أن نقوم {{بتفكيك}} شتى النشاطات والعلاقات الفردية والأسرية والاجتماعية العامة... أي أننا -بإيجاز- يجب أن نرصد المجتمع الإسلامي والناس الذين يعيشون فيه في كل أوضاعهم وبكل شرائحهم، مسلطين الضوء على شبكة العلاقات الاجتماعية في شتى أحواله؛ من جد وترويح وحزن وفرح وسلام وخلاف وزواج وطلاق... إلى آخر كل الخيوط المشكلة لنسيج الحياة الاجتماعية.

وفي الحياة الاقتصادية -لكي يكون حكمنا موضوعيا كذلك- يجب أن نرصد مدى تمثيل المجتمع الإسلامي لأبواب المعاملات كلها، ونقيس ما كان سائدا من النشاطات الاقتصادية على أحكام المعاملات الإسلامية، فمثلا: هل كان المجتمع الإسلامي في عصوره المختلفة يخضع لسيادة الربا؟ أو أن الربا كان -ككل صور الشذوذ-كان سلوكا منبوذا فرديا يقاومه المجتمع؟

لقد كان المجتمع الإسلامي -إذن- مجتمع (القرض الحسن)، والتكافل الاجتماعي (ونلاحظ هنا ظاهرة الحبوس والأوقاف التي امتاز بها المجتمع الإسلامي).

هل كانت الزكاة فقط هي الواجب الذي يؤديه المسلم، أو أنه كان يؤدي واجبات كثيرة مثل حقوق الجيران، وحق الماعون، وحق الضيافة، وحق ابن السبيل في الإيواء، إلى آخر هذه الحقوق؟

وهكذا نتدرج إلى شتى النشاطات الاقتصادية والمالية والاجتماعية لنقدم الرأي المحايد فيها.

ولعلنا نتساءل هنا: لماذا لم تظهر -ولم تنجح- كل صور الشيوعية أو الاشتراكية في العالم الإسلامي؟ بينما ظهرت أو انتشرت في المجتمعات الغربية، وكادت تجتاح الغرب كله لولا أن بادر إلى تحقيق صور من التكافل والضمان وحقوق الإنسان سدت الباب في وجه الشيوعية، وأطلقت الإنسان إلى عالم العلم والعمل والإبداع؟... أليس قيم تحقيق التكافل والضمان، وحقوق الإنسان هي التي حالت دون وجود صراع اجتماعي أو اقتصادي في المجتمع الإسلامي على النحو الذي ظهر في حضارات الإغريق والرومان وأوروبا الحديثة؟!

ولكي نحكم على الحياة الثقافية والفكرية والتعليمية؛ يجب أن نقوم بعملية التحليل نفسها، فنتتبع كل الخلايا العلمية والتثقيفية؛ بدءا بالدور والكتاتيب، وأروقة المساجد، ومن ثم المدارس النظامية، والجامعات، والرباطات، والمكتبات العامة والخاصة.

إن الأمر ليس عملا هينا ولا بسيطا، ويجب أن يجتهد المؤرخون فيه، كما اجتهدوا في استقصاء الوقائع العسكرية، وحياة الساسة، وكل ما صغر من {{أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام}}([[58]](#footnote-58))، وغيرهم ممن بويعوا بعد الاحتلام!!!

لقد قدمت الشرائح المختلفة ما تستطيع من جهد، فأفرزت لنا كيانا مستقلا اسمه (الحضارة الإسلامية)... وقد قام المسلمون أنفسهم - على نحو ما ذكرنا - بنقد مصادرهم ومؤرخيهم؛ بهدف الوصول إلى الحق، وقد قاموا بهذا النقد وفق مبضع جريء قوي، لا يخشى في الحق لومة لائم... وقد استطاعوا -بهذا المنهج- أن يصححوا مفاهيمهم وسلوكياتهم، وأن يحموا سيرة نبيهم صلى الله عليه وسلم وسنته القولية من كل أوهام يريد المغرضون والأعداء إقحامها لتشويه المثل الأعلى والقدوة وتضليل منهج المسلمين.

كما أن مصادر كثيرة – لم تأخذ حقها من الدراسة والإفادة بعد، وقد ألمحنا إلى بعضها؛ ككتب الطبقات والرحلات والجغرافيين والأدب والفقه - قد قدمت أنماطا ونماذج من الحياة الاجتماعية والاقتصادية... وهي تحتاج إلى أن تصبح هي وغيرها من كتب الحضارة - قبل كتب السياسة - مناط البحث التاريخي، حتى نكتشف - بوضوح ويقين - كيف أن الشريعة كانت تحكم هذه الحياة الإسلامية المهيمنة والصانعة لنسيج الحياة، وشبكة العلاقات.

ومن الجدير بالتوضيح؛ أن ما يفعله بعضهم من ربط مستوى التزام الساسة بالإسلام بالتزام المجتمع - ومنهم مدرسة الأستاذ {{ محمد أركون }} - إنما هو ارتباط في غير موضعه... ولو لزم وجود هذا الارتباط في مسيرة الأديان والعقائد لما عاش أي دين...

ولكان اليهود - مثلا - قد ذابوا في الشعوب الأخرى؛ إذ إنهم قلما قامت لهم دولة في التاريخ... ومع ذلك تحملوا الاضطهاد والاغتراب، وبقوا حتى اليوم يعلنون هويتهم الدينية، حتى في اسم الدولة التي استطاعوا تسخير القوى الكبرى لإنشائها، وهي {{إسرائيل}} بل ربما كان الاضطهاد السياسي دافعا إلى مزيد من التماسك والالتزام.

وفي التاريخ الإسلامي كانت رغبة المجتمعات الإسلامية الدائمة هي الالتزام بالإسلام والتمسك به {{إنها ما استسلمت بسهولة لتقاليد الحكام؛ بل شقت طريقها المستقل بمواجهتهم، وعملت جادة من أجل إعادتهم إلى جادة الصواب}}([[59]](#footnote-59))...

وعندما كانت تعجز؛ فإنها كانت تقاوم بالفعل الحضاري، فيعمل الدعاة والفقهاء والمحتسبون على إنكار المنكر ومقاومة مفاسد السياسة، ويتطوع المجتمع المسلم ببناء المؤسسات الإسلامية التي تغنيه عن الحاكم، ويحاصر بها أهواء الحكام المنحرفين، ومعظم المساجد والكتاتيب والأوقاف الخيرية كانت تقوم على أكتاف الشعوب المسلمة... وما زالت حتى اليوم في أكثر بلاد الإسلام!!

وعبر عصور الحضارة الإسلامية المختلفة كان المجتمع الإسلامي -اعتمادا على بنائه للفرد والأسرة المسلمة والتربية والتعليم الإسلاميين- يتحرك في عملية جهاد مستمر لصياغة حياته وفق شريعة الإسلام، ماضيا على جهات ثلاث متناغمة ومتكاملة: حركة ذاتية عميقة؛ لتمكين الإنسان الفرد من المزيد من التحقق بالإيمان، وحركة جماعية أفقية؛ لتمكين المجتمع المسلم من حماية نسيجه وإحكام حبكته، وحركة صوب الخارج تحمل بعدا عقديا؛ يتوسل بالسياسة أو القوة العسكرية حينا، وبالفعل الحضاري والكلمة المؤمنة الهادية في أكثر الأحايين([[60]](#footnote-60)).

وبالمنظور الشمولي نفسه نرصد الإطار العام لحركة التاريخ الإسلامي وحضارته، من خلال فاعلية الإنسان المسلم وإبداعه، فنجد هذا الإطار تنتظمه مراحل أساسية كبرى هي([[61]](#footnote-61)):

1. **مرحلة تكوين الإنسان المؤمن (النموذج)**

لقد تم في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - تكوين المسلم تكوينا دينيا شاملا لشؤون الحياة الدنيا، وهذا العهد النبوي (عهد الصحابة رضي الله عنهم) هو أساس كل تحضر إسلامي، وفي كثير من مراحل التاريخ الإسلامي تمت محاولات ناجحة لبناء إنسان مسلم يقتفي أثر النموذج، وكان لهؤلاء دور كبير في إثراء الحضارة الإسلامية، ونهوضها في محاط كثيرة.

1. **مرحلة تبليغ أساسات الحضارة الإسلامية للأمم**

وهي مرحلة الفتوحات الكبرى؛ التي كان العصر الأموي قمتها، وقد تكرر نموذجهم في التاريخ على يد المرابطين في المغرب، وبني أمية في الأندلس، والمماليك والأكراد والعثمانيين في بعض عصورهم.

1. **مرحلة اللقاء الحضاري بين الإسلام وبين حضارات الأمم**

وقد تفاعل المسلمون مع حضارات غيرهم، وسرعان ما تفهموا روح الحضارات الأخرى وعناصرها، وقاموا ببناء حضارة روحها وجوهرها الإسلام، ورداؤها كل مظاهر التحضر الإنساني، وهذا تحقق في العصر العباسي حتى أواسط القرن الرابع الهجري -مع بعض الملاحظات على عصر المأمون- وهذا النموذج تكرر في فتح الإسلام للهند، وفي التفاعل الإسلامي الواعي (وليس العلماني) مع حضارة أوروبا المعاصرة.

1. **مرحلة الإبداع مع التنوع**

وهي تمتد حتى أوائل القرن الثامن الهجري، وإن كانت قد عاقتها غزوات المغول وما أعقبها، وفي هذه المرحلة كان التأثير الكبير لحضارة الإسلام في الحضارة الغربية الأوروبية، وهي التي لم تزدهر إلا بعد المعرفة بالإسلام وحضارته([[62]](#footnote-62)).

1. **مرحلة الحضارة عند مختلف شعوب الإسلام**

في فارس والهند ومصر وفي الدولة العثمانية.

1. **مرحلة الركود والتخلف تحت سيطرة الغرور الحضاري وقهر الاستعمار.**
2. **مرحلة النهضة الحديثة في مختلف بلاد الإسلام.**

في القرنين التاسع عشر والعشرين وما تبع ذلك من ظهور الصحوة، وبروز الرؤية الإسلامية والمناهج الإسلامية لكتابة التاريخ، ولتأصيل علوم الاجتماع والتربية والنفس والإعلام والأدب؛ بمنظور حضاري إسلامي متميز([[63]](#footnote-63)).

ومرة أخرى، ونحن نقدم نظرة تقويمية أخيرة لتاريخنا الإسلامي وحضارته... بعد تقديمنا بعض التفصيلات الضرورية عن العصور التي {{عَلمَنَهَا}} الأستاذ/ محمد أركون بعدد من الأسطر!!

مرة أخرى -ونحن نقدم هذه النظرة التقويمية العامة لتاريخنا الإسلامي، وحضارتنا الإسلامية- نوضح أن المنهج العلمي يقتضي من الذين يحكمون على تاريخنا ومستوى ارتباط أبنائه بالشريعة أن يقوموا بالبحث الدقيق في نسيج الحضارة الإسلامية أو الفحص العميق لمكوناتها وعناصرها الفاعلة، وخلاياها المتعددة في مستويات القاعدة، وفي مستوى القمة، وفي مستوى الإبداع الفكري، وفي مستويات العمل الجسدي والنشاطات اليومية... كما يقتضي المنهج تتبعا منصفا للحركات التي يحلو لبعضهم أن يسميها {{حركات ثورية}}، مع أنها في تصورنا {{حركات إصلاحية}} أرادت العودة بالأمة إلى الكتاب والسنة، حتى إن أخطأ بعضها في أساليب التغيير... هذا إذا استثنينا بعض الحركات الموجهة من عقائد مضادة كحركة الباطنية والقرامطة.

لقد كان كل المختلفين في حضارتنا؛ يطالبون بالعودة إلى الإسلام الصحيح... إنه القاسم المشترك الذي لا يختلف حوله... وكلهم يظن أنه الأقرب للصواب في دعوته ومنهجه... وكلهم مجتهد، ولم يكن أحدهم ليدعو إلى نبذ الإسلام، وإلا لانتهى فورا؛ لأن الخروج على الإسلام اتجاه مرفوض من الأمة كلها!! ولم يكن الأمر -كما فهمت المدرسة العلمانية وعلى رأسها (محمد أركون)- مجرد تمسح في الإسلام، أو تدثر به؛ لتحقيق أغراض شخصية!! بل كان الإسلام -بيقين- هو الهدف المشترك، وكان مصدر الخلاف بينهم تغليب حق على حق، أو اعتماد بعضهم ورفض الآخرين للتأويل، أو ترجيح فقه على فقه آخر.

وهذا الخلاف -بالطبع- قد يحتدم عند وجود خلل في السلوك الذي هو من طبيعة البشر، فتتقدم جماعة للتصويب، ويقاومها الآخرون لخروجها على الطريق الشرعي -في رأيهم- أو لأنهم في موقف يبصرون فيه بعض الحقائق التي لا يبصرها الآخرون.

ونحن بالطبع لا نقوِّم هنا شتى السلوكيات التي وقعت في عصور تاريخية كثيرة، كي نثبت صحة هذه الحقيقة([[64]](#footnote-64)) بدءا بخلافة علي ومعاوية (رضي الله عنهما)، وحتى ثورة البربر في المغرب ضد ولاة الجور، الذين كانوا يبقون الجزية على من أسلم، وأيا كان الأمر؛ فعندما كانت تتكاثف الأخطاء وتكل السواعد عن حمل الراية الإسلامية والحضارية، كانت سواعد أخرى فتية تتقدم، فتنتهي المرحلة السابقة، وتبدأ مرحلة لاحقة... لتكن السواعد القادرة على حمل الراية سواعد عربية أو بربرية أو تركية أو فارسية أو كردية أو حتى مماليك، من هؤلاء الذين كانوا عبيدا فرفعهم الإسلام بحضارته إلى مستوى القيادة والسيادة... ليكن هؤلاء أو أولئك... المهم أن يكونوا تحت الشعار الثابت شعار الإسلام.

إن حضارة الإسلام حضارة منفتحة قادرة على المواجهة، وتغيير أدوار البطولة بين أبنائها، والكشف عن طاقتها الكامنة، واستثارة كل الطاقات.

وفي نهاية هذا الشوط، وبالإضافة إلى كل ما ذكرناه... نقول: إن رصد المجتمع الإسلامي من داخله يحتاج إلى تحليل اجتماعي خاص؛ فهذا المجتمع يمزج بين العبادات والمعاملات، وتمتد فيه مساحة العبادة، فتصبح الأرض كلها في مفهوم المسلم وسلوكه مسجدا.

ولا يصلح للمسلم أن يعطي للمسجد يوما وينفلت من العبادة بقية أيام الأسبوع، وعندما ننظر في حقيقة العبادات والشعائر التي يطالب المسلم بها، ولا يستحق صفة الإسلام إذا لم يؤدها، نجدها ذات طبيعة اجتماعية، فهي غير محصورة في المسجد أو الفرد أو الأسرة.

فالصلاة ذات أبعاد اجتماعية، والحضور لها في المسجد يحقق صلات، ووظائف اجتماعية... وصلة الزكاة بأنواعها المختلفة بالحياة الاجتماعية لا تحتاج إلى دليل، ويتفرع عن العبادة وظائف اجتماعية لها قيمتها، وعلى رأسها: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وحقوق الجيران، وزيارة المرضى، وحق الضيافة؛ الذي يذهب فقيه مثل ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ) إلى وجوبه ثلاثة أيام... كما يذهب إلى أن (حق إعارة الماعون) فرض، كذلك في حدود الطاقة...

ولو ذهبنا نستقصي شتى العبادات والأوامر، والنوافل المؤكدة، وفروض الكفاية؛ لوجدنا أن المسلم - بحكم كونه مسلم يعيش الحياة كلها محكوما بشريعة الله، ولا يجد إلا الله يتجه له بنشاطه؛ لأن هذا من مقتضيات توحيد القصد والعناية. {{ومن ثم تعد كل خدمة اجتماعية وكل عمل من أعمال الخير عبادة}} ([[65]](#footnote-65))، قال صلى الله عليه وسلم: {{الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار}}([[66]](#footnote-66))...

وإذا رصدنا بعض الأخطاء فهذا - كما ذكرنا سلفا - ضرورة بشرية؛ لأن المجتمع الإسلامي ليس مجتمع معصومين أو ملائكة... بيد أن ضمير المسلم ووعيه يرفضان الأخطاء، ولم يسع المجتمع الإسلامي إلى تقنين خطأ قط، أو تحويله إلى قاعدة، كما تفعل المجتمعات المادية والعلمانية؛ فعندما عجزت أمريكا منذ نحو قرن عن تحريم الخمور وأنفقت ملياري دولار، عادت فأباحتها بقانون طرب له الشعب الأمريكي؛ أما المجتمع الإسلامي فهو يقاوم الذين يبيحون المحرمات، ويرفضون فتاواهم، ويصوغ حياته - أفرادا أو عائلات - أو تقاليد وعادات، أو تربية أو أخلاقا... وفق شريعة الإسلام.

وإذا نظرنا إلى خضوع المجتمع الإسلامي للشريعة من زاوية انبثاق أفكار المسلم وسلوكه عن عقيدته، مثلما تنبثق الأخلاق المادية عن الاشتراكية، والأخلاقية الفردية والبورجوازية عن الرأسمالية، والسلوكيات المتخبطة عن العقائد الوثنية؛ فسوف نجد الصلة قوية بين عقيدة التوحيد، وقيم المسلم المسيطرة عليه، {{فهناك قيم وأخلاق تنبثق من تصور أن هناك ألوهية واحدة، وعبودية شاملة لكل شيء وكل حي... وهناك أخلاق تنبثق من التصور الإسلامي للوجود وعلاقته بخالقه، ولمركز الإنسان في هذا الوجود، ولغاية وجوده ووظيفته، ونوع ارتباطاته وعلاقته بالكون المادي، وبالإحياء وببني جنسه كذلك، وعلاقة هؤلاء جميعا بالله}}([[67]](#footnote-67))، وبإيجاز:فإنالأوضاع الاجتماعية بجملتها، والأوضاع السياسية تطبيق واقعي للقيم المنبثقة من هذا التصور([[68]](#footnote-68)).

وبالإضافة إلى الترابط العضوي بين العقيدة والشريعة من جانب، وحياة المسلم من جانب آخر، فثمة طبيعة أخرى للإسلام تجعل الترابط بين حياة المسلم ودينه ترابطا قويا؛ لا ينحصر في دائرة العبادات - مع اتساعها - ولا المعاملات - مع اتساعها - بل إن العلاقات التشريعية الإسلامية تغطي كل النشاطات البشرية في المجتمع، وليس هناك منطقة يشعر فيها المسلم بأنه خارج دائرة الثواب والعقاب؛ ولئن كانت المصادر الشرعية صادرة عن الوحي فإن التطبيق الحي لأصولها في واقع الحياة، جعلها تثمر ثروة فقهية تراكمت أحكامها من خلال الصلة المباشرة بين الجمهور والفقهاء، فالناس يقصدون الفقهاء بمشكلاتهم، ويقصدون القضاة بمنازعتهم، وهم يجدون من الفقهاء والقضاة والمحتسبين والعلماء؛ الرأي والتوجيه والكل يأخذ من شريعة الإسلام([[69]](#footnote-69))!!

وفي ضوء هذه الحقائق يتجلى لنا -بيقين- أن القول الذي يلوكه العلمانيون حول عدم تطبيق الشريعة في التاريخ الإسلامي وفي الحياة الإسلامية بعد الراشدين يمثل غاية في الاستخفاف بالعقل البشري، وهو يؤدي - كما يقول الكاتب والمفكر {{غير المنحاز لتراثنا}} (محمد عابد الجابري) إلى عدمية مخيفة - إلى {{العدم التاريخي}}([[70]](#footnote-70))، فأين سنضع الآلاف بل عشرات الآلاف من الفقهاء الذين عرفهم تاريخ الإسلام؟ وأين سنضع كتب الفقه والاجتهادات والفتاوى؟ ونحن إذ نطلق هذه الأحكام التعسفية نتساءل مع الجابري: ما حقيقة إسلام أجدادنا وأسلافنا؟ ألم يكونوا مسلمين؟ ألم يطبقوا الشريعة في عباداتهم وعقود زواجهم ومعاملاتهم؟ إننا نقول: الإسلام دين ودولة... نعم، وقد كان كذلك بالفعل، أما إذا قلنا أن الشريعة لم تطبق منذ الرسول عليه الصلاة والسلام أو منذ الراشدين، فمعنى ذلك أن الإسلام لم يكن دينا مطبقا، ولا كان دولة طوال الأربعة عشر قرنا المنصرمة... فهذا غير صحيح تاريخيا، وغير مقبول منطقيا... إنه قول يجر إلى عدمية مخيفة، تتركنا بدون هوية ودون تاريخ، وبالتالي بدون حاضر وبدون مستقبل!!

\*\*\*

## المجتمع الإسلامي في خلافتي الأمويين والعباسيين

**(تقييم موضوعي)**

من صور الخطأ التي وقع فيها كثير من المؤرخين والمفكرين أنهم خلطوا بين مسيرة الحضارة ومسيرة التاريخ، مطبقين الخطوط السياسية الفاصلة نفسها على التيار الحضاري، مع أن مسيرة الحضارة لا تخضع لتقلب الدول، فضلا على سقوط دولة وقيام أخرى تنتمي إلى المدرسة العقدية والإشعاع الثقافي نفسه...

وأنا أعجب حقيقة من هؤلاء المؤرخين الذين نظروا إلى سنة (41هـ) - التي قامت فيها الدولة الأموية - وكأنها منعطف جديد في الحضارة الإسلامية!!

ترى: هل انتهى في هذه السنة جيل الصحابة؛ الذين رباهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو انقرض التابعون؛ الذين تتلمذوا على يد التلامذة الأول للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن بعض الصحابة قد عاشوا إلى ما بعد العقد التاسع، أي بعد عام الجماعة بأكثر من نصف قرن كامل... أما التابعون فقد عاش بعضهم إلى ما بعد سقوط الدولة الأموية سنة (132هـ).

إن ما حدث هو أن أسلوب انتقال الحكم قد تغير من شورى مطلقة إلى شورى مقيدة؛ نتيجة لظروف معينة لا نتعرض لها في هذا المقام... أما نهر الحضارة الإسلامية فقد ظل يشق مجراه... وظلت الأمة هي الأمة، والمبادئ هي المبادئ...

ونتيجة لتطورات معينة، وابتعادا عن عصر النموذج القدوة، والانفتاح على حضارات متعددة، والحصول على ثروات طائلة؛ ظهرت تجاوزات هنا وهناك، كما تظهر في كل المنعطفات والدول العظمى... وهي تجاوزات قامت الأمة بنقدها والتنديد بأصحابها...

إن (هاملتون جب) -وهو مستشرق لا يمكن وصفه بالدفاع عن تاريخ الإسلام- يومئ إلى طبيعة التغير في نظام الحكم عند الأمويين، فيذكر أنه: {{من قبيل التناقض أن يلصق الناس بالأمويين تلك التهمة الشائعة؛ وهي أنهم حولوا الخلافة إلى ملك، وهذا التناقض ذاته يوحي لنا بأنه ينبغي علينا - إذا شئنا أن نفهم الطبيعة الحقيقية للأزمة - أن ننفذ إلى ما وراء سطح الواقع بكثير، وأن نجتهد بصورة خاصة في تحرير أنفسنا من عادة مؤرخي العرب؛ الذين ينظرون إلى العملية التاريخية على ضوء الأعمال الشخصية دون اعتبار منهم للظروف التي اكتنفت أعمال الأفراد، ورسمت حدودها، والقضية التي أحب أن أطرحها في هذا المقام تتلخص في أن الأمويين كانوا -إذا جاز لنا التعبير على هذا النحو - ضحية عملية ديالكتيكية داخل المجتمع الإسلامي([[71]](#footnote-71)).

وإذا ما نظرنا إلى الخلافة الأموية([[72]](#footnote-72)) بهذه النظرة -غير السياسية- التي ترصد التطور الحضاري، وليس التعبير الفوقي؛ فإننا سنجد هذه الخلافة التي قدر لها أن تعيش في التاريخ نحو قرن من الزمان، تواجه خلاله بقايا الإمبراطوريات المندثرة رومية وفارسية، وتؤصل لمؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية في العالم الإسلامي الجديد، والحديث، عهدا بالبداوة والفكر الوثني والروماني السابق، وذلك مع وجود بعض التجاوزات، خضوعا لظروف التطور التي ألمحنا إلى بعض جوانبها سابقا، مما يؤكد وجهة نظرنا في أن التغيير السياسي لا يرتبط بالتغير الحضاري.

إننا هنا نتساءل: هذه الجيوش الفاتحة التي ساحت في معظم أقطار المعمورة، من حدود الصين والهند وحتى سبته في المغرب الأقصى وكوفادونجا في جبال البرانس بإسبانيا... ألم تقم على أكتاف الجندي المسلم المجاهد الذي كان يمضي مخلصا شبه متطوع أو نظاميا وراء القادة الذين اختارهم بنو أمية؟... لقد أثبت هؤلاء أنهم مخلصون حقا بصرف النظر عن النظام السياسي الذي انتقلوا إليه... ولقد نشروا الإسلام في المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وطرابلس وبرقة وإسبانيا والصين والهند وبلاد آسيا الوسطى وأفغانستان وغيرها...

وفي هذا العصر وقعت عملية التعريب، وتم تنظيم الدواوين، وسك العملة، وبدأت العلوم العربية والاسلامية تكتمل صورها!!

وإذا كنا قد استشهدنا برأي (جب) في طبيعة الانتقال من الراشدين إلى الدولة الأموية؛ فإننا -ونحن نلقي ضوءا وجيزا على أبرز خلفاء هذه الدولة، الذين قاموا بالفتوحات وساعدوا التطور- نتابع استشهادنا بمؤرخ أوروبي آخر من كبار الدارسين للتاريخ الإنساني كله، إيمانا منا بأن شهادة هؤلاء قد تكون أكثر قابلية لدى المدرسة العلمانية؛ التي تسقط أحكاما تعسفية غير متأنية على تاريخنا!!

**إن (ول ديورانت) يقول:**

{{يجب علينا ألا نظلم معاوية، لقد استحوذ على السلطة في بادئ الأمر؛ حيث عينه عمر - الخليفة الفاضل النزيه - واليا على الشام، ثم بتزعمه الثورة؛ التي أوقد نارها مقتل عثمان، ثم بما دبره من {{الأساليب السياسية}} البارعة؛ التي أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا في ظروف جد نادرة... ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضبا بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسرا حاكمة جديدة}}([[73]](#footnote-73)).

{{وكان يجلس للناس خمس مرات في اليوم، وقد استؤنفت الفتوحات الإسلامية في عهده بعد توقف، وكان يسمع المدح في منافسه في مجلسه؛ بل ويسمع بفضله عليه ولا يعاقب على ذلك...

أما عبد الملك بن مروان؛ فقد سار على خطى معاوية، وحاول أن يطبق سياسته الداخلية في الجلوس للناس، وكان من فقهاء المدينة المعروفين، وقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك، وكان من فاتحي إفريقية قبل الخلافة، وقد استقرت قواعد الدولة في عهده، وظهر طابعها العربي واستقلالها الحضاري.

أما ابنه الوليد الأول ففي عهده (واصل العرب فتوحاتهم فاستولوا على بلخ في عام (86هـ/ 705م)، وكان الوليد مثلا طيبا للحكام، يعني بشؤون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب، ويشجع الصناعة والتجارة؛ بفتح الأسواق الجديدة، وإصلاح الطرق، وينشئ المدارس والمستشفيات -ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية- وملاجئ للشيوخ، والعجزة، والمكفوفين، ويوسع مساجد مكة، والمدينة وبيت المقدس، ويجملها، وينشئ في دمشق مسجدا أعظم من هذه المساجد وأفخم، ولا يزال باقيا فيها حتى اليوم}}([[74]](#footnote-74)).

ولما جاء عمر بن عبد العزيز (99/101هـ - 717/719م) أعاد سيرة الراشدين، واعتبر بإجماع الأمة خامس الراشدين، وأحدث عودة حميدة شعبية ورسمية للإسلام.

وقد حكم هشام الدولة حكما عادلا ساد فيه السلم، وأصلح خلاله الشؤون الإدارية، وخفض الضرائب، وترك - بعد وفاته - بيت المال مليئا بالأموال([[75]](#footnote-75)).

فهؤلاء - كما نرى - (معاوية، وعبد الملك، والوليد، وعمر، وهشام) خمسة من خلفاء بني أمية، حكموا نحو ثلاثة أرباع عمر الدولة، وقدموا خدمات كثيرة للحضارة الإسلامية، باعتراف مؤرخ أوروبي كبير، يحاول أن يقترب من الإنصاف، وقد كتب ديورانت ما كتبه ضمن رصد شامل للحضارة الإنسانية، وليس في دراسة مستقلة متخصصة، ومع ذلك جاء في كلام (ول ديورانت) -كما رأينا-ـ قدر كبير من الإنصاف ضمن منظومة (قصة الحضارة)، وذلك على العكس من كتابات العلمانيين الذين لم يحسنوا قراءة تاريخ الإسلام؛ بل أغلب الظن عندي أنهم أو بعضهم لم يقرءوه أصلا!!

وقد اهتم الأمويون بتجديد المساجد الأولى التي أنشئت في عصر الراشدين؛ مثل جامع البصرة والكوفة والفسطاط، وجامع صنعاء الكبير، كما اهتموا بتأسيس عدد كبير من المساجد الجامعة؛ مثل جامع دمشق، والجامع الأقصى، وقبة الصخرة، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع عقبة بن نافع في القيروان، كما جددوا المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبد الملك، وزادوا في جامع عمرو بن العاص عدة مرات([[76]](#footnote-76))، وقد ازدهرت الحياة الفكرية في العصر الأموي، وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية والاجتماعية والرياضيات والفلك والطبيعيات([[77]](#footnote-77))، وكان من أهم العلوم الدينية: (القراءات والحديث - الذي دوِّن في عصرهم - وعلوم القرآن) ([[78]](#footnote-78)).

ولما كان العهد الأموي عهد فتوحات وتفاعل مع الحضارة المعاصرة؛ فقد وقف الحكام وعلماء الأمة وقفة حضارية أصيلة في وجه الأفكار والعلوم والنظم واللغات الوافدة، وقد نجحوا في وضع الضوابط والمناهج، وأسس هذه العلوم؛ التي تكفل التأصيل الصحيح، والمواجهة الايجابية، والاستجابة المثلى للتحدي الفكري.

وكما نشأت علوم اللغة لمواجهة اللحن، فقد نشأت المذاهب الفقهية للاجتهاد في الوقائع الجزئية التي تكاثرت، فظهر الإمام أبو حنيفة (80 - 150هـ)، والإمام مالك ولد سنة (93هـ)، وقيل (95هـ)، وتوفى سنة (179هـ)-رضي الله عنهما- وكذلك نشأ علم الحديث بفروعه الكثيرة والرائعة لمواجهة الوضع والوضعين.

وكان القضاء قائما على خير الوجوه الشرعية وأحكمها، فقد جرى معاوية بن صخر بجهده في ملاحظة القضاء ورسومه على حدث وترتيب زمانه، جاريا في ذلك على سنن من تقدمه([[79]](#footnote-79))؛ أي على سنن الراشدين.

وحقيقة أن الدولة العباسية لم تكن دولة فتوحات؛ لأسباب كثيرة: منها أن الأمويين قد تركوا لها ما يكفيها من الأرض؛ بل إنها كانت في حاجة إلى جهد كبير لتحكم قبضتها على الأرض التي تحت أيديها، وكانت الدولة العباسية -بالتالي، تتجه إلى الداخل، وترعى- في حدود المتاح للحكم - العلوم والآداب، وكان الشعب مشغولا بصناعة الحضارة مطمئنا، تهيأت له الفرص، ونشر العباسيون الرخاء أمام الناس لستة قرون لم ير قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم كما يقول (ول ديورانت)، وقد ازدهرت العلوم والآداب والفنون ازدهارا جعل آسيا الغربية لخمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة([[80]](#footnote-80)).

ونال التعليم من العناية القدح المعلى والحظ الأوفر، ظهرت مراحله الأولية والثانوية والعالية، وحدث أن وضعت الحكومة هذه {{المدارس الثانوية}} تحت إشرافها، وتكفلت بالإنفاق عليها، وكان التعليم بالمجان، وكان المعلمون والطلاب يتناولون مرتباتهم ونفقاتهم في بعض الأحيان من الحكومة أو من أموال البر والصدقات، وكان الطلاب يجوبون أطراف البلاد الإسلامية؛ ليقابلوا عالما كبيرا أو مصلحا مشهورا، وكان على كل طالب علم يريد أن تعلو مكانته في بلده أن يسافر إلى مكة، أو بغداد، أو دمشق، أو القاهرة، ليستمع في واحدة منها أو أكثر من واحدة إلى كبار العلماء، وكان من الأسباب التي يسرت انتشار الأدب العربي في بلاد الإسلام المختلفة وجعلته أدبا دوليا واحدا، أن لغة التعليم والأدب في جميع البلاد الإسلامية -مهما اختلفت أجناس أهلها- هي اللغة العربية؛ التي بلغت من سعة الانتشار ما لم تبلغه اللغة اليونانية([[81]](#footnote-81)).

وقد ساعد على انتشار الأفكار العربية والاسلامية أيضا؛ أن العرب كانوا قد عرفوا الورق، وافتتحوا في بغداد أول مصنع للورق عام (794م) على يد الفضل بن يحيى (وزير هارون الرشيد)، ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وإسبانيا، وفي الفترة نفسها وجد الورق في مصر، وبدأ ينتقل إلى معظم العالم الإسلامي، وبالطبع فقد يسر هذا الاختراع تأليف الكتب في كل بلد انتقل إليه.

وكانت معظم دروس الفقه والعقيدة في العصر العباسي تعطى في المسجد، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرس، وكان يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة في المسجد، مستندا إليها بظهره إن أمكن، وقد أحصى المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة -كما يؤكد آدم متز- وقت العشاء مائة وعشرة من مجالس العلم([[82]](#footnote-82)).

لقد حقق المنصور للدولة العباسية استقرارا كبيرا في النواحي المالية والإدارية والقضائية، وبقية تنظيمات الجهاز الإداري للدولة، واتبع المنصور أسلوب المركزية في الحكم، وقد ساعده على ذلك وجود نظام دقيق للمراقبة؛ مكنه من معرفة ما يجري في الولايات عن طريق البريد، فقد كلف عمال البريد بمراقبة الولاة، والكتابة إليه عن عماله وعن الأسعار والأموال والقضاة، واهتم المنصور باختيار ولاته وعماله في جميع أجهزة الدولة، من ذوي الأخلاق الفاضلة والديانة والأمانة، وخصص المنصور جزءا كبيرا من وقته اليومي للنظر في الكتب الواردة عليه من أنحاء الدولة.

كما اهتم بالشؤون الحربية وتنظيم الجيش، وأسند قيادة الجيش لشخصيات عربية، كما أن معظم الجند كانوا من العرب، أما الوزارة فلم يكن لها نفوذ كبير في عهده، غير أنه جعلها نظاما سياسيا لها مراسيمها الخاصة، وقد تميز القضاء في عهده بالتنظيم، وظهر المذهبان الفقهيان المالكي في الحجاز والحنفي في العراق([[83]](#footnote-83)).

أما الشرطة وهي تابعة للقضاء آنذاك، فقد حرص المنصور على متابعة أخبار أصحاب شرطته، وإنزال العقوبة بمن جاوز حدود سلطته.

وكان المنصور أول من اهتم بالعلوم من خلفاء بني العباس، وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى اللغة العربية من كتب الفلك والرياضيات والطب والأدب، كما بدأ ازدهار التدوين في عهده في الفقه والحديث والتفسير والتاريخ وغيره، ومن أشهرها كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، وكتاب السيرة النبوية لابن إسحاق.

وكان جامع المنصور ببغداد -وهو أحدث مسجد جامع بها- أشهر مركز للتعليم في الدولة الإسلامية، ويحكى أن الخطيب البغدادي لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله -عز وجل- ثلاث حاجات أخذ بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ماء زمزم لما شرب له)، **فالحاجة الأولى:** أن يحدث بتاريخ بغداد، **والثانية:** أن يملي الحديث بجامع المنصور، **والثالثة:** أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي ([[84]](#footnote-84)).

وقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى في عام 323هـ - 935م) - وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهاني - إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها...

وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ، فقد كان أبو حامد بن حمد الإسفراييني المتوفى عام (406هـ - 1015م) إمام أصحاب الشافعي، وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه.

وأما أبو الطيب الصعلوكي الفقيه الأديب مفتي نيسابور، وهي مركز علماء خراسان، فيقال: إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمائة طالب علم في عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم (387هـ/ 997م)، وكان يقعد بين يدي أحد أصحاب الجويني (ركن الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف) المتوفى عام (478هـ/ 1085م) كل يوم ثلاثمائة من الأئمة والطلبة([[85]](#footnote-85)).

وكانت المكتبات العامة، ومكتبات المساجد منتشرة يؤمها الدارسون، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم، وبلغت فهارس كتب المكتبة العامة بالري عشرة مجلدات، ولما دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة([[86]](#footnote-86)).

ولقد استخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية، ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكي، ويدرسوا كلف الشمس، واستخدموا كروية الأرض أساسا بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية؛ بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت واحد، وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثي ميل، وهو تقدير يزيد بنصف ميل عن تقديرنا في الوقت الحاضر([[87]](#footnote-87)).

ومع أن عصر المأمون يتعرض لنقد شديد؛ نظرا لاستبداد المعتزلة فيه، وللوقوع في الترجمة الوافدة؛ التي أساءت التي عناصر الأصالة مهما بذل في انتقائها وغربلتها، وعدم وجود ترجمة مضادة من العربية إلى اللغات الأخرى، إلا أن هذا العصر قد حفل بكثير من صور التقدم في شتى العلوم العقلية والنقلية...

## الأمة في خدمة الشريعة (نموذج)

ومع هذا، ومع وجود الإيجابيات التي قام بها جهاز الدولة فإن الأمة المسلمة - كعادتها - لم تترك أمر الشريعة للحكومة وحدها؛ بل جاهدت في مجال نشر الإسلام الصحيح، ومقاومة البدع الفكرية الوافدة، واللصوص والمفسدين؛ الذين انتهزوا فرصة الصراع على الحكم في الدولة، وعاثوا في البلاد الفساد!! ويحدثنا التاريخ في هذه الفترة عن حركة من هذه الحركات الإصلاحية الشعبية الرائعة.

فقد اشتهر أحمد بن نصر الخزاعي بأنه كان عالما ومعلما في بغداد، خصوصا أيام المأمون حينما برزت الفتنة، وبدأ المعتزلة ينشرون آراءهم القائلة بخلق القرآن، فكان الخزاعي من أشهر من وقف في هذه الأزمة، وكان لأسرته مكانة خاصة لدى العباسيين؛ نظرا لمكانة جده؛ حيث كان أحد النقباء للدعوة العباسية، وبالتالي فقد كان أحمد بن نصر من أهل الوجاهة والرياسة في بغداد، كما صرح بذلك ابن كثير([[88]](#footnote-88))، وقد كان ابتداء شهرته في بغداد سنة (201هـ)، بعد قتل الأمين ببغداد سنة (198هـ/ 813م)، وبقيت بغداد مسرحا للنهب وللسلب؛ حيث تأخر المأمون بخراسان، واضطربت أحوال بغداد، وكثر فيها اللصوص والدعارة، وأهل الفساد، فاجتمع حوله جماعة من الناس بايعوه، وأخذوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وكان أتباعه يستمعون لأوامره، وبالتالي ساعد على ضبط الأمور في شرق بغداد، إلى أن قدم المأمون إلى بغداد سنة (204هـ)([[89]](#footnote-89))، فاختفى الخزاعي عندئذ، وذكر المؤرخون أن الخزاعي، وسهل بن سلامة كانا يتعاونان على هذا الأمر([[90]](#footnote-90))، وقد استمرت دعوة الخزاعي ما بين (201- 231هـ) أي ثلاثة عقود.

ويصور الطبري حركة الخزاعي الدعوية الإصلاحية؛ عندما يؤرخ لسنة (201هـ) فيقول: في هذه السنة تجردت المتطوعة للنكير على الفساق ببغداد... وكان السبب في ذلك فساق الحربية والشطار؛ الذين كانوا ببغداد والكرخ، فآذوا الناس أذى شديدا، وأظهروا الفسق، وقطع الطريق، وأخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرق... فلما رأى الناس ذلك وما قد أظهروا من الفساد في الأرض، والظلم والبغي، وقطع الطريق، وأن السلطان لا يغير عليهم، قام صلحاء كل ربض وكل درب، فمشى بعضهم إلى بعض، وقالوا إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة، وقد غلبوكم وأنتم منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفساق، وصاروا لا يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم.

وقد قام رجال من أهل بغداد بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل بكتاب الله -عز وجل- وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وتبايعوا على ذلك، وأخذوا يشجعون الناس على التعاون، والتكاتف لصد أولئك المفسدين، ومنعهم من الاختباء، وقد كانت هذه الحركة الشعبية عامة وشاملة، دخل فيها الكثير من الناس، وكانت منظمة؛ بحيث يسجل فيها اسم من يريد التعاون معها ضد الفساق؛ الذين كانوا يعبثون فسادا في بغداد، وقد تمكنت هذه الحركة -بانتظام ودقة- من العمل على منع اللصوص من العبث ببغداد وبأهلها، وأوقفوا ما كان يدفعه الناس من أموال لهؤلاء المفسدين مقابل عدم الاعتداء عليهم.

ويدل على تنظيم هذا العمل ودقته، ما ذكره الطبري من أن رؤساء هذه الحركة قد جعلوا لها دواوين يسجل فيها اسم من بايع على العمل معهم([[91]](#footnote-91)).

فلما انتهت الفتنة بين المأمون والأمين، وعادت للحكومة هيبتها، وعاد لها سلطانها توقفت الحركة، وتركت الأمور لذويها من أهل الحكم.

## نماذج لخلفاء صالحين

ولئن كنا قد ألمحنا إلى بعض الخلفاء العظماء والمشهورين من آل العباس، من أمثال محمد المهدي، وهارون الرشيد؛ فما ذاك إلا أننا لا نريد تأكيد المعروف والمتفق عليه من المنصفين... كما أننا أيضا عمدنا إلى تجاوز العصور المزدهرة غالبا؛ حتى لا يحتج علينا بأننا ركزنا على المشهورين الذين يمثلون - في رأي المتحيزين ضد تاريخنا - الشذوذ.

ولهذا الالتزام فإننا لم نقف عند عمر بن عبد العزيز ونحن نتحدث عن بني أمية، وأيضا فإننا لن نقف عند محمد المعتصم العباسي (218 - 227هـ/ 733 - 842م) صاحب عمورية العظيم، ولن نقف عند هارون الواثق، أو جعفر المتوكل؛ الذي قاوم حركة ظلم الاعتزال، وأنهى الظلم الذي وقع على أهل السنة.

وسوف نقفز لنقدم نموذجين من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) استغرق حكمهما نحو ستين سنة.

وهذا القرن الخامس -كما هو معروف- من القرون التي تحسب من عهود ضعف الدولة العباسية.

في هذه الفترة كان الخليفة في بغداد (المقتدي بأمر الله العباسي)؛ الذي حكم عقدين من الزمان (467 - 487هـ)، واحدا من خليفتين حكما في النصف الثاني من القرن الخامس.

ويكاد يجمع المؤرخون على أن المقتدي كان يتمتع بأخلاق طيبة، وأن من صفاته حبه للدين والخير، وكانت نفسه قوية، وهمته عالية، وذا شجاعة وشهامة، وكل أيامه خير وبركة، حسن السيرة والسريرة([[92]](#footnote-92))، ويصفه ابن كثير -أيضا- بأن شمائله عالية، وغيرته على حريم الناس لا تضاهى، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويمتاز بالعدل والصلاح والتقوى، ولين الجانب، وكثرة العلم([[93]](#footnote-93)).

وكان المقتدي حريصا على أخلاق الناس ودينهم؛ ولذلك عمل منذ خلافته على تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور، وخرب الخمارات، ودور الزواني والمغاني([[94]](#footnote-94))، وقد تابع التطهير كلما ظهر ما يوجبه([[95]](#footnote-95))، وكان يهتم بمتابعة حركة النظام في بغداد، وأقدم على اتخاذ قرار بتأمين الحاجات الضرورية للناس، وعلى رأسها المسكن، فأمر بشراء بيت لكل فقير يسكن في كوخ، وقد راقب المقتدي حركة البيع والشراء، ومنع التلاعب بالموازين والأسعار([[96]](#footnote-96)).

وكانت المدارس الفقهية هي الظاهرة اللافتة للنظر؛ لأنها تعكس تطور الحركة الفقهية، وعلم الحديث، والتفسير، والآداب، واللغة؛ لأنها جميعا كانت مواد التدريس التي يتلقاها طلاب هذه المدارس، وكان انتشار المدارس بمدينة بغداد في عصر السلاجقة هي الحدث الأكبر والأهم الذي حققته الحضارة الإسلامية، وتعتبر بحق قفزة كبيرة في سلم التطور العلمي، بعد أن كان التدريس محصورا في المساجد وبعض الكتاتيب.

وقد أنشئت المدارس لخدمة المذاهب الفقهية، ولتغذية أجهزة الدولة بالقدرات العلمية اللازمة([[97]](#footnote-97)).

وقد احتل الفقهاء ورجال العلم منزلة رفيعة في المجتمع الإسلامي بمدينة بغداد؛ في أيام المقتدي بالله العباسي، وساهموا في معظم الأحداث التي شهدتها المدينة، وازدهرت في هذه المرحلة مذاهب الفقه السنية الثلاثة: مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومذهب الإمام الشافعي، ومذهب الإمام أبي حنيفة([[98]](#footnote-98)).

أما الخليفة المستظهر أبو العباس أحمد المقتدي فقد حكم بين سنتي (487 - 512هـ)، ويصفه المؤرخون بأنه لين الجانب، كريم الأخلاق، يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات([[99]](#footnote-99))، وكان مؤثرا للإحسان، حافظا للقرآن، محبا للعلم، منكرا للظلم، وكان مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه، وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغ إلى سعاية ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلوث وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض([[100]](#footnote-100)).

وكان جميل السيرة متصفا بالعدل والإنصاف، ناهيا عن قصد الجور والاعتساف، سمحا جوادا، هينا لينا، حسن المعشر، قد حسن الله خَلقه وخلقه، وبره وأدبه، وجهه أبيض مشرب حمرة، تام الطول، لطيف المحاسن، نقش خاتمه {{ثقتي بالله وحده}}، يحب العلماء والصلحاء، كبير الهمة، سهل العريكة، وكانت أيامه أيام سرور للرعية؛ فكأنها من حسنها أعياد، وكان حسن الخط، جيد التوقيعات([[101]](#footnote-101)).

وقد تميزت العلاقة بين المذاهب الإسلامية في عهد المستظهر بالصلح، والمودة، والاحترام، وهذا كان بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الخليفة في معاملة عامة الناس.

ويعد عهد المستظهر من أزهى العهود التي عرفها أهل الذمة ببغداد؛ لأن المستظهر حرص على معاملتهم بالحسنى، وقرب زعماءهم.

## نموذج لدور المرأة الحضاري

لم تكن المرأة المسلمة في العصر العباسي بعيدة عن مجال صناعة الحضارة الإسلامية؛ بل كانت ركنا أساسيا من ركني الحضارة الفاعلة، وكان لها وجود فاعل في داخل البيت؛ حيث تشرف على صناعة الإنسان وتحويله إلى إيجابي مؤمن مؤثر، كما كان لها وجود - أيضا - في المسجد والتعليم والفكر والثقافة والجهاد، في الإطار الذي حددته شريعة الله، وثمة كتب كثيرة رصدت (أعلام النساء) ودور المرأة الحضاري، ونكتفي بنموذج نقدمه من حياة ابن عساكر (499 - 571هـ) نفسه، ومن إطلالة عابرة على الجزء الذي خصه لتراجم النساء من كتابه (تاريخ مدينة دمشق).

كان بيت الحافظ أبي القاسم علي، المعروف بابن عساكر معمورا بالعلم؛ كل من فيه بين حافظ ومحدث. لقد استطاعت شخصيته القوية، وروحه السمحة أن تفعل في نفوس أبنائه وزوجه فعل السحر، كان ابنه القاسم بن علي بن الحسن جمال الإسلام حافظا، سار على خطوات أبيه، وأتم عمله في التاريخ وبيضه وسمعه على أبيه، وكانت زوجه وأم أبنائه عائشة بنت علي بن الخضر أم عبد الله السلمية تهتم بالحديث وتسمعه من شيخات يحضرهن لها زوجها، ثم يسمع أبناؤها منها، كما يسمعون من والدهم، أما أبو الفتح الحسن بن علي؛ فقد سمع على والده الحافظ أبي القاسم، وعمه الفقيه الصائن([[102]](#footnote-102)).

أما خارج البيت؛ فقد كان لابن عساكر شيخات تعلم على أيديهن، وقد ذكر منهن في كتابه (شكر بنت أبي الفرج) سهل بن بشر، وخجسنة بنت إبراهيم أم الشمس الأصفهاني، وخجسنة بنت أبي المظفر بنت أبي الوفاء عمر (أم البهاء)، وشهدة بنت أحمد بن الفرج، وضوء بنت محمد الطويل (أم الكرام)، وفاطمة بنت محمد بن أحمد أم البهاء بنت البغدادي، وملكة بنت إبراهيم بن داود بن محمد سعيد القرطقي (العالمة الصوفية)، ونورسي بنت أبي الوفاء عبيد الله بن محمود أم النجم([[103]](#footnote-103)).

ونحن نتوقع - بالطبع - أن هذه التلمذة على هؤلاء الشيخات كانت في إطار الشريعة، وكانت إما في الصغر، وإما في إطار المسجد، أو التلقي غير المباشر، ويكفي أن نرصد هذا الحشد الكبير الذي دونه عساكر في تراجمه للنساء؛ لنعلم كم كان دور المرأة فاعلا في العصور التي يصفها بعضهم بالجمود... ففي حرف الألف فقط أورد ابن عساكر هذه الأسماء:

أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية {{ابنة خالة المصنف}}، وأسماء بنت واثلة بن الأسقع الليثية، وأسماء - ويقال: فكيهة - بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس الأشهلية، أسماء امرأة كانت في عصر أم الدرداء، آمنة - ويقال: أمة - بنت سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، آمنة بنت الشريد، زوج عمرو بن الحمق، آمنة - ويقال -: أمينة - بنت عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص، آمنة - أو أمية - بنت أبي الشعثاء الفزارية، آمنة بنت محمد بن أحمد، أم اليمن العجلية، آمنة بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية {{ابنة خالة المصنف}}، آمنة ذات الذئب، أمة العزيز بنت سهل الإسفرييني، أمة العزيز بنت محمد بن الحسن الديلمية، أميمة بنت أبي بشر بن زيد بن الأطول ـ ويقال: زيد الأطول - أميمة بنت رقيقة - وهي أميمة بنت عبد، ويقال عبد الله بن بجاد بن عمير([[104]](#footnote-104)).

ولنا أن نقيس على حرف الألف بقية الحروف، ويكفي أن نعلم أن هذا الجزء الذي خصه لتراجم النساء من كتابة الموسوعي (تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حل بها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها) بقع في أكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير، كما يجب أن نتذكر أيضا أن هذا الكتاب يرصد حركة الحضارة في مدينة واحدة مدينة دمشق، وأنه لا يرصد إلا الأعلام البارزات؛ اللاتي استطاع ابن عساكر أن يصل إليهن... ولنا - بل يجب علينا - أن نضع عند تقويمنا، النساء اللائي كن في بغداد؛ التي كانت تتصدر الحواضر الإسلامية في العصر العباسي.

ولنا - بل يجب علينا - أن نضع الأندلس بقرونها الثمانية عند التقويم أيضا...

ولنتذكر كذلك الأدوار الحضارية؛ التي تعاورتها العواصم والحواضر الإسلامية الكبرى على امتداد العالم الإسلامي: المدينة، والقاهرة، والقيروان، وفاس، وبجاية، ودهلي وغيرها.

وكانت المرأة العابدة والعالمة، والمربية والمجاهدة موجودة هنا وهناك... تتحرك في إطار الشريعة، وقد تخطئ - وفق سنن الله البشرية - كما يخطئ الرجال... لكنها كانت وستبقى أشرف امرأة عرفها تاريخ البشرية... إنها تموت ولا تبيع دينها أو تأكل بثدييها في الأعم الأغلب!!

## متى نكف عن ظلم تاريخنا؟!!

وهكذا... من خلال هذه الومضات من تاريخ المجتمع الإسلامي في خلافتي الأمويين والعباسيين، وهي الومضات التي تشكل مجرد نماذج (غير منتقاة)، والتي تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء للجوانب الأخرى؛ التي تتصل بالتفاعل الحضاري، القائم على شريعة الإسلام في الخلافتين العظيمتين الأموية والعباسية... هكذا نكشف الحجم الحقيقي للظلم الواقع على تاريخنا، كما نكتشف حجم التقصير الواقع من بعض المحسوبين عليه، وعن طريق هؤلاء الذين يطلقون أحكاما عامة جزئية، وسرعان ما تسقط عند البحث العميق.

وقد اكتشفنا من خلال النماذج المقدمة؛ كيف كان التفاعل إيجابيا وقويا من قبل كثير من الحكام، ومن قبل الشعب المسلم؛ الذي كان الحارس الأمين على شريعة الإسلام وحضارته.

وقد كان هناك تفاعل من نوع آخر لم نقف عنده كثيرا، مع أنه انبثق عن التصور الإسلامي أيضا، وإن كان يتصل ببعض الوسائل والتقنيات، وعلى سبيل المثال؛ فقد انتشرت البيمارستانات، وكانت أهم الأماكن التي يدرس فيها الطب؛ لكنها كانت محكومة بالشريعة أيضا. فلم تكن الشريعة تجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة؛ إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض، ونال إجازة من الدولة.

كذلك كان الصيادلة، والأطباء، والمجبرون يخضعون لأنظمة شرعية تضعها الدولة للتفتيش عن أعمالهم، وكان في بغداد وحدها (في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) ثمانمائة وستون طبيبا مرخصا.

وكان انتظام مالية الخلفاء سببا في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير كتعبيد الطرق، وإنشاء الفنادق، والمساجد، والمشافي، والمدارس في جميع نواحي الدولة، ولا سيما في بغداد والبصرة والموصل (...)، واتسع نطاق الزراعة، ووسعت دائرة التعليم العام([[105]](#footnote-105)).

وخلال القرون الأربعة: (الثاني، والثالث، والرابع، والخامس الهجرية) بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية، ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة([[106]](#footnote-106)).

وفي ذلك كانت الدوافع شرعية في الأغلب الأعم؛ لأن الإسلام دين ودنيا، وعبادة وعمل، كما أن ذلك كان محكوما بالضوابط الشرعية، إلا ما كان في دائرة الشذوذ... ذلك لأننا لا نستطيع أن نقول... إن بني العباس لم يخطئوا، ولكننا نقول إن ذلك يجب أن يقاس في إطار ظروفه التاريخية، وأن يتحرى فيه وجه الحق([[107]](#footnote-107))، وأن يكون موضوع التحليل عادلا وموضوعا.

إن (ديورانت) -مع كل أورده عن الدولة العباسية إيجابا وسلبا- لم يملك إلا أن يقول: "إنها كانت أقوى حضارة علمية إلى نهاية العصر العباسي، وبعده بستة قرون"([[108]](#footnote-108)).

\*\*\*

## الحياة الإسلامية في المغرب وإفريقية

مع قيام الدولة العباسية سنة (132هـ)؛ انفصلت عن دولة الخلافة الكبرى -من الناحية السياسية- بعض الأقاليم، ولا سيما البعيدة منها... وكان المغرب العربي وإفريقية الإسلامية والأندلس أبرز المناطق التي انفصلت... ولم ينظر قط إلى هذه الدول إلا على أنها دول مستقلة عسكريا وسياسيا، أما العقيدة والشريعة والقيم فواحدة... وكانت كلها تنتسب إلى الإسلام وتحمل رايته، وقد كان الأغالبة (184 – 296هـ) يرتبطون بالخلافة العباسية، ويحكمون باسمها، وعاصمتهم القيروان أصبحت من أشهر العواصم الإسلامية نشرا للثقافة الإسلامية، وعن طريق قوتهم البحرية الهائلة قاموا بغزو مالطة والسواحل الايطالية الجنوبية، وقد نجحوا في عهد زيادة الله الأغلبي في الاستيلاء على صقلية، بقيادة القائد الفقيه القاضي أسد بن الفرات (212هـ)([[109]](#footnote-109)).

أما الأدارسة فقد استقلوا في المغرب الأقصى، وكانت عاصمتهم (فاس)، وقد حكموا نحو قرنين من الزمان (172 - 363هـ).

وفي المغرب الأوسط (الجزائر) قامت دولة بني رستم على يد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم؛ الذي كان مولى لعثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وهو منشئ مدينة تاهرت (العاصمة)، وكان يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، ويشارك الناس في أعمال البناء للمساجد ولبيوتهم بيده... ومع أنه كان خارجي المذهب إلا إنه كان - ودولته - ملتزما بالشريعة في إطار المذهب الإباضي... وقد عاشت الدولة أكثر من قرن ونصف (144 - 296 هـ)([[110]](#footnote-110))، حتى قضى عليها الشيعة الفاطميون، وقد ازدهر المغرب الأوسط على عهد الرستميين، وأصبحت تاهرت مدينة علمية وثقافية حافلة بالأجناس من شتى أنحاء العالم الإسلامي([[111]](#footnote-111))، وكانت الدولة على علاقة طيبة بالأمويين في الأندلس، وقد عملوا على نشر الإسلام في داخل إفريقية([[112]](#footnote-112)).

وكانت دولة بني مدرار (واسول) في سلجماسة؛ تشبه أن تكون جناحا خارجيا لبني رستم، وكانت مثلها في الاعتدال والالتزام بالإسلام، وكانت عاصمتها سجلماسة([[113]](#footnote-113))، وعاشت أكثر من قرنين (140 - 349هـ)، وكانوا لا يبيحون دم مسلم إلا بحقه، ولا يميلون إلى تكفير أحد من المسلمين([[114]](#footnote-114))، وقد تعاونوا مع بني رستم في أمور كثيرة نافعة؛ حتى قضى عليهم الشيعة!!

فهكذا ارتبطت هذه الدولة بالإسلام وشريعته وحضارته وجاهدت في سبيله على الرغم من استقلالها السياسي.

**المرابطون في المغرب، نموذج رائع للإخلاص للإسلام**

أما المرابطون الصنهاجيون (430 - 540هـ) فدولتهم - بحق - إحدى أعظم الدول الإسلامية في إفريقية والمغرب العربي، وقد قامت هذه الدولة على أساس العناق التام بين الدولة والأمة، على كتاب الله وسنة رسوله، والجهاد في سبيل إقامة مجتمع إسلامي، ونشر الإسلام في إفريقية، وقد وضعوا نصب أعينهم تربية الشعب على أسس إسلامية جادة، والتقدم به للقضاء على الوثنيات في إفريقية، وحركات المرتدين، وأدعياء النبوة في قبائل غمارة وبرغواطة، وكان ابن ياسين يلقب بمحيي السنة، وقامع البدع والأضاليل.

وقد أحدث (عبد الله بن ياسين) هزة في حياة العامة في هذه المنطقة، فغير بعض العادات، وأحيا الروح الدينية، وأقام حدود الإسلام، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس([[115]](#footnote-115)).

وكان رجال الدول المرابطية على هذا المنهج، ومنهم يحيى بن إبراهيم ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمر اللمتوني، ويوسف بن تاشفين، وغيرهم، وقد علموا الناس في الأربطة الدين والعمل؛ فاعتمد رجال الرباط على أنفسهم في الحصول على كل ما يحتاجون إليه، عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من البر والبحر، كما كانوا يعدون طعامهم بأنفسهم، مع الاكتفاء في الطعام بأقل القليل، وبالخشن من الثياب؛ فقد كانت حياتهم البسيطة متواضعة، خشنة، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة، وآلوا على أنفسهم الإخلاص، والتوبة، والتعبد([[116]](#footnote-116)).

وقد تمخضت جهود المرابطين عن إسلام شعوب (التكرور) بغرب افريقية؛ التي كانت أول الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام، في حركة المرابطين الأولى، في أيام الشيخ عبد الله بن ياسين، فعمل التكرور بدورهم على متابعة الدعوة إلى هذا الدين، وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولوف، والفولبي، والماندنجو، ونشروا المدارس الإسلامية في السودان الغربي، فاستوعبت هذه القبائل الإسلام، وأخذوا من حضارة العرب، وتأثروا بالشريعة الإسلامية، واستعانوا بالدعاة من المرابطين في بلاطهم؛ لتعليمهم الشريعة والقراءة، والكتابة، حتى إنهم قلدوهم في ملابسهم، ووقفوا معهم في موجة اندفاع المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، وجهودهم في نشر الإسلام في منتصف القرن الحادي عشر (السادس الهجري)، ويمدون نفوذهم إلى الجنوب، وإلى الجنوب الشرقي، فتكونت بعد ذلك من هذه الأراضي إمبراطورية مالي.

وانتشر مسلمو غانة الذين اعتنقوا الإسلام في اتجاه ديارا، وغلم، وميناء، واتجهوا خاصة إلى ديا، ومن ديا تحركت مجموعات من الديولا؛ الذين حملوا الإسلام إلى الحدود الشمالية لمنطقة الغابات، وهناك أنشئوا مراكز إسلامية مثل (بيجو) بالقرب من جنوب نهر الفولتا الأسود، ومن هناك انتشرت المدن التجارية مثل بوندونكو، والكونج([[117]](#footnote-117))؛ وهي مدن تجارية قامت الحياة فيها على أساس الشريعة الإسلامية، والرباط في سبيل الله.

**دور الموحدين الحضاري**

وأما الموحدون فقد حملوا الراية في المغرب والأندلس بعد المرابطين ([[118]](#footnote-118))، واستمروا في عملها لأكثر من قرن (540 - 650هـ)، وما فتئوا يحملون شعلة الإسلام، ويوحدون الأمة، وكان الخليفة عبد المؤمن بن على فقهيا ومحدثا وأصوليا([[119]](#footnote-119)).

ولا ينكر باحث أن ثمة أخطاء وقعت فيها الدولة الموحدية، على أن تلك الأخطاء التي تقرؤها في سطور الدولة الموحدية الأولى قد اقتصرت على حياة المهدي بن ترموت تقريبا، وكما يخرج النور أحيانا من التراكمات المظلمة، وكما تنبثق الشمس من بين السحب... كذلك وقع في مسيرة الدولة الموحدية؛ فما إن مات المهدي بن تومرت سنة (524هـ) حتى بدأت موازين دولة الموحدين تعتدل على يد (عبد المؤمن بن علي)؛ الذي خلف محمد بن تومرت، ومات سنة (558هـ)... ثم ابنه يوسف بن عبد المؤمن (580هـ) فإنه يعقوب المنصور (ت 595هـ) بطل معركة (الأرك)؛ التي وطدت لدولة الإسلام في الأندلس نحو ربع قرن من الزمان، ثم الناصر (ت 610هـ)([[120]](#footnote-120)).

ولهذه الدولة الموحدية الفضل في الوحدة التي انتظمت المغرب والأندلس، كما أن لها اليد الطولى في عودة تونس إلى حظيرة الإسلام بعد أن استولى عليها النصارى النورمان المتعصبون.

وقد اشتهر عن الدولة الموحدية - وبخاصة في عهد أمرائها الأقوياء - ازدهارها الاقتصادي؛ الذي تمثل في أربعة مظاهر أساسية:

**أولا:** كثرة المصانع سواء في المغرب أو الأندلس.

**ثانيا:** التبادل التجاري مع مختلف أقاليم حوض البحر المتوسط؛ حيث كانت للموحدين مكاتب تجارية تشبه الفنادق في بعض مدن فرنسا وايطاليا، كمرسيليا وجنوة والبندقية.

**ثالثا:** العملة الموحدية القوية.

**رابعا:** الأسطول التجاري البحري؛ الذي كانت تفرزه صناعة السفن([[121]](#footnote-121)).

وفي المجال العقدي أو الفكري؛ وقف الموحدون في وجه السيطرة الكاملة التي تمتع بها فقهاء المذهب المالكي، والذين كادوا يغلقون أبواب الاجتهاد، فلما جاء الموحدون دعوا إلى الاجتهاد، وشجعوا الرجوع إلى الكتاب والسنة، وازدهرت في عهدهم دراسة علمي الكلام والأصول، وكان من نتيجة ذلك أن لان فقهاء المالكية، وتركوا التعصب المذهبي الأعمى، ومالوا إلى النظر في كتب الأصول.

## الحياة الدينية والتربية والتعليم في المغرب العربي (الإسلامي)

وفي المغرب الإسلامي كله بصورة عامة منذ الفتح وحتى سقوط دولة الموحدين؛ كان المسجد يقوم بدور تعليمي كبير، بحيث إنه لم يكن ثمة مسجد في مدينة خال من المدرسين([[122]](#footnote-122))، وقد أطلق عليه في المغرب العربي اسم (المسيد)، وكثيرا ما كان هذا (المسيد) علما على {{ملحق}} يلتصق بالمسجد... ويفرد للناحية التعليمة.

وقد تطور هذا {{المسيد}} في القرن الخامس الهجري، فاستقل بنفسه عن المسجد، وصار كيانا بذاته من حيث البناء والهدف([[123]](#footnote-123))؛ لكن هذا التطور لم يمنع المسجد من أن يكون محل تعلم، إلا أنه ارتفع طبقة فصار بمثابة دار {{للتعليم الثانوي}} أو {{التعليم العالي}}، إلى جانب {{المسيد}} و{{ المسجد}} وجدت {{الزاوية}} فقد كانت الزوايا كثيرة جدا.

وكانت الكتاتيب مكانا لأشهر أنواع التعليم الابتدائي، ويبدو أنها كانت قريبة - في تخصصها - من عمل {{المسيد}}، وإن كانت تتميز بملكيتها الخاصة.

ويبدو أن ما عرف في بلدان المغرب العربي باسم {{الشريعة}}؛ كان يقوم أحيانا مكان {{الكتاب}}، وهي {{خيمة مدرسية عند البدو}}([[124]](#footnote-124)) إلى جانب كونه مصلى تقام فيه {{الأعياد}}، وربما صلوات الجمع، ومن المحتمل أن {{الشريعة}} كانت محل تعليم البدو في مقابل {{المسيد}}؛ الذي كان محل تعليم أهل المدن، وكان غالبا يطلق على ملحق بالمسجد، وكان ينتقل بانتقال الحي وفق ضرورة الانتجاع، أو دواعي تزاحم القبائل، ويتعلم فيها الصغار من الجنسين (الأحداث)([[125]](#footnote-125))، وفي المدن المغربية الكبرى كان يوجد لون من التعليم العالي (الجامعي)، وعلى سبيل المثال، فقد أنشأ الناصر بن علناس المتوفى سنة (481هـ) في بجاية (الجزائرية) معهد {{سيدي التواتي}}؛ الذي يحتوي على ثلاثة آلاف طالب وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية([[126]](#footnote-126))، ولقد ازدهرت الحياة العلمية في المغرب العربي ازدهارا كبيرا تدلنا عليه هذه المكانة التي احتلتها عواصم المغرب الحضارية آنذاك كـ{{فاس والقيروان وتلمسان وبجاية وتونس}} وغيرها، وقد برز في هذه العواصم العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم من طوائف الاشتغال بفنون العلم المتعددة.

ولقد لقيت علوم القرآن والسنة -من تفسير وحديث وقراءات وفقه- اهتمام الدول المغربية، وجمهرة المسلمين.

وقد اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة في كتب الفروع، وفقا لمدرسة الحديث؛ التي كان إمامها {{مالك}} إمام أهل الحديث بالمدينة، وكانت كتب المالكية الشهيرة؛ كموطأ الإمام مالك، والتلقين لعبد الوهاب البغدادي، والواضحة لابن حبيب (163هـ 779م) {{والعتيبة}} للعتبي ([[127]](#footnote-127))، و{{الأسدية}} التي جمعها أسد بن الفرات (213هـ / 828م) ([[128]](#footnote-128))، أثناء تلمذته على {{ عبد الرحمن بن القاسم }} (ت 191هـ / 806م) إمام المالكية بمصر، {{والمدونة}} أو {{المختلطة}} التي جمعها في فقه المالكية أبو سعيد عبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون والمتوفى سنة (240هـ/ 854م)؛ على رأس الكتب التي تجد من المغاربة أكبر اهتمام.

## الحياة الدينية والعلمية في إفريقية السوداء

وإذا ما عبرنا منطقة الشمال الأفريقي، ودخلنا إلى افريقية السوداء؛ فسوف نجد جهودا شعبية إسلامية ناجحة، تكررت في الأمكنة والأزمنة المختلفة... وحسبنا هنا في عملية التحليل التي نقوم بها -لدحض الآراء العمومية غير العلمية - أن نرصد بعض المحاولات البارزة التي نجح أصحابها في نشر كلمة الله، وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومقاومة الجهل والبدع والانحلال.

لقد شهدت بلاد الهوسا في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (15 للميلاد) تحولات خطيرة وحركة إصلاحية عظيمة قادها بعض السلاطين كسلطان (كانو) محمد رمفا، وسلطان (كتسينا) محمد كورو، وسلطان (زاريا) محمد رابو، الذين اعتنوا اعتناء كبيرا بإحياء الشعائر الدينية، ومحاربة الوثنية، وإضفاء الثوب الإسلامي على النظم السياسية، بالإضافة إلى توسيع قاعدة التعليم، وتشجيع العلماء لنشر العلم في بقاع البلاد المختلفة، ونخص في هذا المجال السلطان محمد رمفا؛ الذي وضع اللبنة الأساسية للبنية السياسية والاجتماعية والشرعية للدولة، والذي غير من ملامح الدولة شبه الوثنية، وأدخل نظام الدواوين الإسلامية في سلطنته([[129]](#footnote-129)).

ولقد تزامن عهد هذا السلطان مع زيارة أحد كبار العلماء المجاهدين من الشمال الإفريقي لبلاد السودان الأوسط والغربي، وخاصة أغذر وكاتسينا وكانوا وستفي... وذلك الشيخ هو محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى التواتي.

وتذكر بعض المصادر أن المغيلي أنشأ مدرسة إسلامية في كاتسينا، وجلس يعلم الناس شؤون دينهم... وأثمرت مجهودات محمد بن عبد الكريم المغيلي في تخريج عدد كبير من العلماء، وتأسيس مدارس علمية كثيرة([[130]](#footnote-130)).

وفي الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ظهرت حركة الشيخ (عثمان بن فودى) النيجيري (1166 - 1233هـ) (1752 ـ 1817م)، وكانت تقوم على نشر الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات التي لحقت به.

وكان الشيخ (عثمان بن فودى) في بداية دعوته يحدث الناس في خمسة أمور رئيسة:

**أولها:** ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة.

**وثانيها:** ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات.

**وثالثها:** في رد الأوهام والآراء الخطأ في أذهان الطلبة؛ مما تلقوه من علم الكلام، وتكفيرهم عامة الناس بلا مبرر شرعي.

**ورابعها:** فيدور حول إخماد البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في دين الإسلام، ورد العوائد المخالفة للشرع.

**ويختص الأمر الخامس:** بتعليم العلوم الشرعية وتبسيط مشكلاتها، وتقريبها من فهم العوام.

وعندما تكاثر أتباعه، وهاجر إليه الناس من أقاصي البلاد مستمعين لوعظه، ومقتدين بسلوكه، حسده علماء زمانه، وأظهروا له العداوة والبغضاء، ووشوا به لدى الحكام لتعطيل مسار دعوته... وبالرغم من ذلك فلم يكترث الشيخ/ عثمان بن فودي بكيدهم، ومضى يحاربهم باللسان والقلم، داحضا افتراءاتهم، ومبلغا رسالته بصدق وإخلاص أذهل الناس جميعهم.

ولقد استطاع الشيخ/ عثمان بن فودي - بعد فترة وجيزة من قيام دعوته - تكوين جماعة تسمى بـ (الجماعة)، وكان قوامها تلاميذ الشيخ نفسه، الذين تلقوا العلم على يديه، والذين صقلهم فكريا، وهيأهم ذهنيا وعلميا للقيام بمسؤولياتهم في التربية والدعوة إلى دين الله([[131]](#footnote-131)).

وفي سبتمبر (1788م) استدعى سلطان غوبر باو علماء بلاده، وكان من بينهم الشيخ/ عثمان بن فودي للاجتماع به في مناسبة عيد الأضحى، ولما اجتمعوا به في مكان يسمى (مغمى) حاول سلطان غوبرا إرضاء الشيخ/ عثمان ابن فودى؛ بإعطائه خمسمائة مثقال من الذهب كمكرمة له... لكن الشيخ/ عثمان فين فودى - على غير عادة العلماء الآخرين الذين كانوا معه ـ رفض تلك الهدية، وطالب بدلا منها بخمسة أشياء:

1. **أن يسمح له بالحرية في التجول في البلاد للدعوة في سبيل الله.**
2. **ألا يعترض سبيل أي شخص يريد الاستجابة لدعوة الشيخ.**
3. **أن يوقر كل عالم يلبس العمامة.**
4. **أن يطلق سراح المسجونين {{السياسيين}}.**
5. **ألا تفرض ضرائب باهظة على الرعية([[132]](#footnote-132)).**

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطان غزبر {{باو}} قد قبل هذه {{الشروط}} مرغما، وكان هذا الموقف نقطة انطلاقة لدعوة الشيخ/ عثمان بن فودى، واعتبر أول انتصار سياسي على حكام بلاد الهوسا.

وهكذا قدم الشيخ/ عثمان بن فودى تجربة لحركة إسلامية شعبية إصلاحية رائعة.

## المجتمع الإسلامي في العصرين المملوكي والتركي

من المعروف لدى الدارسين المتخصصين أن كل عصر يقاس بمدى مواجهته للتحديات التي تفرض عليه من خارجه أو داخله، ووفقا لنوع هذه التحديات يتحدد المسار التاريخي والعطاء؛ اللذان يكفيان المجتمع تكييفا خاصا...

وفي ضوء هذه الحقيقة فإننا لا نتوقع أن يكون المجتمع الإسلامي في العصرين المملوكي والتركي شبيها بالعصرين الأموي والعباسي كل الشبه؛ بل لابد -مع وجود الأرضية العقدية والحضارية المشتركة- من وجود خلاف، ينطلق من عصر جديد له ظروفه وتحدياته الجديدة.

لقد كان المجتمع الإسلامي في عصر الأمويين والعباسيين يعيش ظروف تفوق حضاري، وثقة مطلقة في الذات المسلمة، وتفاعلا فكريا وحضاريا؛ ينطلق من الداخل مع العالم كله، ويسعى - وقد نجح فعلا في سعيه - إلى أن يكون الحضارة الأعلى والكبرى في العالم كله لعدة قرون، بصرف النظر عن وجود أزمات أو مشكلات.

أما في العصرين المملوكي والتركي فقد كان الغرب قد اتخذ زمام المبادرة بعد سبعة قرون من الانحدار، وهو إذا كان معطلا عقديا وحضاريا، ولا يملك ما يصدره للعالم الإسلامي في هذا المستوى، فقد عمد إلى الغزو العسكري الجماعي؛ الذي يشبه أن يكون غزو البرابرة الهمج - في لحظات شعور الموت - للعالم المتحضر الأرقى فكرا وحضارة!!

ولو تعمقنا في الحالة الحضارية؛ التي كانت عليها جيوش الصليبيين، التي قاتلت المسلمين من (مماليك أو أتراك)؛ فسوف نجدها - في الفكر والثقافة والعلوم والأخلاق - أقل بقرون كثيرة من المستوى الإسلامي العام!!

وقد فرض هذا التحدي العسكري الصليبي - والوثني أحيانا على يد التتار - على المماليك والأتراك أن يهتموا بالجوانب العسكرية، على حساب الجوانب الحضارية الأخرى، وما كان بإمكانهم أن يرفضوا المواجهة، ويتخلوا عن هذه الوظيفة التي فرضت عليهم.

وقد أتاح التحدي العسكري لخصومهم أن يتهموهم بالخمول الحضاري، وهو اتهام غير صحيح، فضلا على أنه لم يكن باستطاعتهم تجاهل التحدي الخارجي كما ذكرنا، ومع ذلك فإن ثمة إسهامات حضارية كبيرة قام بها هؤلاء وأولئك في خدمة الشريعة الإسلامية.

إن القاهرة - مثلا - في العصر المملوكي (656 - 857هـ) يقول عنها ابن خلدون (ت 808هـ)؛ الذي زارها، وعاش فيها آخر أيامه:

(إنها جنة الدنيا، مكتظة بجميع أجناس البشر، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة)، وفي تعليقه على كلام ابن خلدون يضرب (ول ديورانت) المثل بقايتباي بأنه: {{أعظم البناة بين المماليك البرجية}}، وبالرغم من أن الحرب أنهكته؛ فقد دبر الأموال لتشييد المباني النفيسة الكثيرة في مكة والمدينة والقدس، وجدد في القاهرة قلعة صلاح الدين والأزهر، وشيد نزلا، وبنى داخل العاصمة مسجدا([[133]](#footnote-133)).

إن ابن بطوطة (ت 979هـ/ 1577م) - مع ابن خلدون (ت 808هـ)، وابن الخطيب (776هـ / 1374م) - من هؤلاء الذين نجد عندهم وصفا للحياة الاجتماعية في هذين العصرين المملوكي والتركي... وعندما نتتبع وصف هؤلاء وغيرهم؛ فسوف نجد الشريعة الإسلامية هي المهيمنة على روح المجتمع وسلوكياته، مع وجود أخطأ بشرية، ولا سيما في مستوى العسكر والسياسة!! و{{ديورانت}} - وهو يحلل لنا هذين العصرين - نجده أكثر دقة وإنصافا من أكثر المؤرخين المسلمين... فقد زار ابن بطوطة أكبر الحكام المسلمين في عصره، والتقى بالعلماء أيضا، وحين عدد أعظم الملوك في عصره حصرهم في سبعة ملوك، ذلك أن منهم ستة من المسلمين، وواحدا صينيا([[134]](#footnote-134))، وأما العلماء في هذا العصر فقد كانوا كثيرين؛ مثل الشعراء، وكانوا يكتبون باللغة العربية، كما جمعوا في كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف، وبين النشاط السياسي والإداري([[135]](#footnote-135))؛ وكان أعظم الكتاب إنتاجا في التاريخ الطبيعي من المسلمين خلال القرنين السابع والثامن الهجري، وإن الكتاب العظيم (حياة الحيوان) الذي ألفه محمد الدميرى (ت 808هـ / 1405م) لمن أقوى الشواهد على هذه الحقيقة، كما كانت المستشفيات كثيرة في العالم الإسلامي([[136]](#footnote-136)).

وقد كانت الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للتشريع والقضاء، وكان الفقهاء هم القائمون على حراستها والاستنباط منها، ويفسر لنا الأستاذ/ حنفي محمود خطاب ما كان لعلماء الدين من سطوة ونفوذ في الدولة المملوكية بصفة عامة فيقول: {{إن الدين كان منبع القانون بين الناس، وكان سلاطين المماليك لا يعرفون أحكام الشريعة، أو وسائل تطبيق تلك الأحكام؛ لأنهم عاشوا عيشة عسكرية منذ نشأتهم، ولم يعرفوا من شؤون الدين سوى ما تلقنوه من مبادئه الأولى في شبابهم الأول بثكنات القلعة وطباقها، وكان من الطبيعي أن يترك المماليك لعلماء الدين تلك الناحية من شؤون الدولة}}([[137]](#footnote-137)). وقد برز من علماء الإسلام في هذا العصر كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام/ عز الدين بن عبد السلام (660هـ)، وتقي الدين عبد الوهاب بن نبت الأعز (قاضي قضاة الشافعية 654هـ)، وصاحب مواقف مشهورة، وشيخ الإسلام الإمام/ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، وهو أشهر من أن نقف عنده!!

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة على المستويين الشعبي والرسمي، فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم.

وقد وقف العلماء وقفات مشرفة وجريئة ضد السلاطين، ورفضوا الإفتاء على هواهم ورغباتهم، كما فعلوا مع السلطان الظاهر برقوق؛ عندما شكا لهم بأن الخزائن خالية من الأموال، والعدو (المغول) زاحف على البلاد، وأنه يريد أخذ نفقة العسكر من مال الأوقاف المرصدة للجوامع والمدارس، فلم يوافقوا على ذلك؛ بل أكثر من ذلك أغلظوا على السلطان القول؛ لكن لما طال الأمر اتفقوا مع السلطان بأن يؤخذ من مال الأوقاف وخراج الأراضي سنة كاملة فقط وتبقى الأوقاف على حالها، وهذا يعتبر انتصارا شبه كامل لاحتجاج علماء الدين، كما كان لعلماء الدين دور كبير في الأزمات وعند وقوع البلاد([[138]](#footnote-138)).

وقد حظي علماء الدين بمكانة كبيرة في عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق (784 - 791هـ)، فقد كان يوقرهم ويحبهم، ويقوم للفقهاء إذا دخلوا عليه... وحتى هؤلاء الذين أخطأ في حقهم؛ مثل الشيخ/ شهاب الدين الشافعي... الذي ما أن وصل إلى علمه أنه كثير الورع والزهد، حتى أرسل خلفه واعتذر إليه، ومن ثم أعاده إلى بلده مكرما([[139]](#footnote-139)).

وفي عهد السلطان المملوكي المؤيد شيخ (815 - 824هـ) ارتفعت مكانة العلماء؛ نظرا لأن السلطان نفسه كان متدينا، وكان يحب الدين، وينقاد للشرع في جميع أموره وأحواله، يدلنا على ذلك أن السلطان نفسه كان يخرج وقت الأزمات واشتداد البلاء، وهو لابس جبة صوف بيضاء، وعلى رأسه عمامة صغيرة متجردا من جميع ملابسه السلطانية الفاخرة، يخرج وبصحبته الخليفة والقضاة وسائر علماء الدين، ثم يصلي من غير سجادة، ويمرغ وجهه في التراب ويبكي تضرعا لله تعالى([[140]](#footnote-140)).

وقد كان للعلماء كلمة مسموعة وأمر نافذ لدى السلطان عند استشارته لهم في أي أمر، فعندما اجتمع السلطان بهم عام (821هـ/ 1418م) واستشارهم في أمر قتال يوسف، أفتوا بجواز قتاله؛ نتيجة لسوء أفعاله وسوء سيرته، فما كان من السلطان إلا أن أسرع في تجهيز العسكر تنفيذا لذلك([[141]](#footnote-141))، وعندما رفض القاضي جلال الدين البلقيني أن ينفذ ما أراده السلطان من الخطيب عند ذكر اسمه بالدعاء في الخطبة أن يهبط درجة؛ حتى يكون ذكر اسم الله تعالى ورسوله في مكان أعلى من المكان الذي ذكر فيه اسمه، لم يعارضه في ذلك، على الرغم من أن قصد السلطان من ذلك هو التواضع والخضوع لله تعالى ورسوله الكريم، كما أن بعض الجوامع قد فعلت ذلك مثل جامع الأزهر، وجامع ابن طولون([[142]](#footnote-142))، مما يدل على مدى قوة كلمة علماء الدين ونفاذها حتى على السلاطين أنفسهم، وتوجيههم إياهم إذا أخطئوا في الاجتهاد.

كان السلطان الأشرف برسباي (825 - 841هـ) منقادا للشرع يحب الفقهاء ويقربهم... وكانت له ثقة في القاضي عبد الله بن عبد الباسط، فكان منقادا له كما ينقاد الطفل إلى أبيه... وله كلمة مسموعة لديه، يدلنا على ذلك أنه عندما تضرر الناس بسبب أمر السلطان بعدم زراعة قصب السكر إلا للسلطان فقط، تكلم معه القاضي عبد الله بن عبد الباسط في ذلك فعندئذ أذن للناس في زراعته([[143]](#footnote-143)).

وكان لعلماء الدين دورهم في توجيه السلطان إذا أخطأ في الاجتهاد، فمن ذلك أنه وقع الطاعون في الديار المصرية، والذي سمي فيما بعد (بالفصل الكبير)؛ لأنه انتشر في جميع نواحي بلاد العالم، فلما رأى السلطان ذلك اجتمع بالخليفة والقضاة الأربعة ومشايخ العلم، واستفتاهم في ذلك، وقال: أخرج أنا والناس إلى الصحراء ونستسقي هناك، فعارضه أحد علماء الدين في ذلك، وقال له: إن ذلك ليس من فعل السلف، وإنما ذلك من سوء أفعال الناس وفتنهم؛ حيث يبعثه الله تعالى عقوبة لهم على ذلك([[144]](#footnote-144)).

وقالوا للسلطان: إنه لابد من أن يمنع المظالم التي كثرت في البلاد، ويبطل المكوس، ويمنع خروج النساء وهن متزينات إلى الأسواق، كما يأمر الناس بكثرة الدعاء والاستغفار، وانفض المجلس على ذلك، وعمل السلطان بكل ما قرره معهم.

وقد كان السلطان يستشيرهم في كثير من أموره التي يعجز أن يجد حلا فيها؛ حيث يجد عندهم الحل الكافي والجواب الشافي، كما فعل عند استشارتهم في أمر زكاة الأموال الظاهرة والباطنة للناس.

وكان السلطان الظاهر جقمق (842 - 857هـ) يكثر من فعل الخير والبر، شديد التدين، وقد استبشر أكثر الصالحين بسلطنته... ولقي في عهده علماء الدين كل حظوة وتقدير واهتمام، وكان يسعى لتطييب خاطرهم، ويرضيهم بشتى الوسائل؛ فمن ذلك ما وقع بين قاضي القضاة سعد بن الدسيري، وبين قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر من تشاجر، وما أدى إليه ذلك التشاجر من عزل القاضي ابن حجر نفسه عن القضاء، فسعى السلطان إلى تطييب خاطره، فأعاده إلى منصب القضاء، وخلع عليه وأكرمه.

وكان يهتم بالعلم والعلماء، ويحضر الحفلات التي يقومون بها من أجل ذلك، ومن ذلك حضوره لحفلة قام بها شهاب الدين بن حجر؛ بسبب انتهائه من تأليف كتاب (فتح الباري في شرح البخاري)([[145]](#footnote-145)).

وقد كان أكثر السلاطين المماليك يخضعون لشروط بعض القضاة، مما يدل على مدى المكانة الكبيرة التي وصلوا إليها، لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتراط على السلاطين([[146]](#footnote-146))، وفي عهد السلطان قانصوه الغوري (ت 922هـ) عارض علماء الدين رغبة السلطان في أخذ أموال الأوقاف والنفقة بها على الأمراء والمماليك.

وفي عهد السلطان الغوري -أيضا- حدثت كائنة عجيبة لعلماء الدين عامة والقضاة بشكل خاص؛ وهي أنهم عزلوا جميعا بسبب معارضتهم لرأي السلطان في مسألة شرعية، فغضب السلطان منهم، وعزلهم جميعا في وقت واحد، حتى أن مصر بقيت حوالي خمسة عشر يوما لم يعقد فيها نكاح، ولا وقع فيها أي حكم من أحكام الشريعة([[147]](#footnote-147)).

وتدلنا تلك الحادثة على مدى جرأة علماء الدين، وعلى مدى قوتهم في مواجهة الظلم والخطأ؛ حتى ولو كان ذلك سببا لعزلهم وإقصائهم عن وظائفهم.

ولم ينقص ذلك كله من مدى عزمهم وقوتهم؛ بل على العكس زاد من قوتهم ومقدرتهم، وزادت قيمتهم عند الناس والأمراء، فقد كان لهم الدور الكبير والفعال في تولي السلطان طومان باي، فعندما قتل السلطان الغوري عام (923هـ- 1516م) وقع اختيار الأمراء على سلطنته فامتنع من ذلك غاية الامتناع، ولكن الأمراء ألحوا عليه وأجبروه بحجة أنه ليس هناك سلطان غيره، فوافقهم، وخاصة بعد أن ضغط عليه الشيخ/ أبو السعود الجارحي، والذي أتى بالمصحف الشريف وحلف الأمراء عليه، على أنه إذا تسلطن الأمير طومان باي لا يغدرونه، ولا يخامرون عليه، ولا يطالبونه بنفقته، وينتهون عن مظالم المسلمين، فحلفوا على ذلك، وانتهى الأمر على سلطنة طومان باي على ذلك([[148]](#footnote-148)).

وقد بقي الأمر بين طومان باي والعلماء على ذلك؛ لكن عهد طومان باي لم يستمر إلا سنة واحدة، فقد استولى العثمانيون على مصر سنة (923هـ / 1517م)، وحملوا الراية...

لكن العلماء - على أية حال وكما تدلنا الوقائع السابقة - كان لهم وجودهم الشرعي، وقد أدوا واجبهم في صياغة المجتمع صياغة إسلامية.

وقد كان العثمانيون -في أصلهم- قبائل تركية فرت من بلاد آسيا الوسطى أمام الزحف المغولي، وقد أسلم جدهم (عثمان بن طغرل)، واستوطن وأتباعه بلاد الأناضول، ومن ثم نجح في تشكيل دولة تنسب إليه، فاتخذ مدينة (قره حصار) قاعدة له، واستقل بعد مداهمة المغول للسلاجقة، وأصبح ملاذا لكثير من المسلمين الذين يفرون من وجه التتار، وخاصة أنه أول من اعتنق الإسلام من أمراء قومه؛ ولهذا انتسب إليه الخلفاء من بعده؛ دلالة على ارتباطهم بالإسلام وليس بالعصبية، وتوفى في سنة (727هـ)، وكان خلفاؤه من بعده قد أخذوا على عاتقهم جهاد البيزنطيين، وتقدم العثمانيون في أوروبا وفتحوا مناطق واسعة، وأخيرا تمكن محمد الثاني من فتح مدينة القسطنطينية عام (857هـ)، وغدا اسمها (إسلام بول)، ويطلق عليه (استانبول)([[149]](#footnote-149)).

ولم يكن انتصار الغازي محمد الثاني في القسطنطينية هو أول نصر كبير يحرزه آل عثمان؛ ولكن (الرمز) أو القيمة المعنوية لهذا الانتصار قد طغت على كل ما عدها من القيم.

لقد أحرز الفاتح أول انتصار وأضخمها على ضفاف البسفور، وهو ابن اثنين وعشرين عاما (857هـ- 1453م)، فلم يداخله الغرور لما أحرزه، ولم يأخذه العجب بما أنجزه وحققه، فمضى للصلاة في مسجد (أياصوفيا) شاكرا لله على ما منحه من النعمة، وأطلق على المدينة المحررة فورا اسم مدينة الإسلام (إسلام بول)، وأسرع إلى موضع استشهاد الصحابي (أبي أيوب الأنصاري)؛ الذي استشهد في حصار القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان (سنة 52هـ)، فأقام بجواره مسجدا مبرهنا على أن الفتح العظيم لم يكن إلا امتدادا لجهاد العرب المسلمين([[150]](#footnote-150))، من أجل رفع راية الإسلام والمسلمين.

وعرف الفاتح أن هذا النصر لابد وأن يستثير حقد الحاقدين من الفرنج والصليبيين، فمضى مجاهدا في سبيل الله، محتسبا الأجر والثواب على الله، فأتعب الدنيا وأتعبته حتى خرج من الدنيا مخلفا للمسلمين فخر الدنيا وعزة الإسلام([[151]](#footnote-151)).

وقد اتجه حفيد محمد الفاتح السلطان سليم إلى دخول الأقاليم العربية، والوقوف في وجه البرتغاليين الذين أرادوا حربا صليبية واضحة، وتعدوا من جهة الجنوب، فدخلوا عدن، واحتلوا مناطق الخليج العربي، كما استطاعوا بمساعدة الأحباش دخول البحر الأحمر، كما استطاع العثمانيون دحر الفرس الذين اتخذهم البرتغاليون مطية لهم.

وكما انتصر المماليك في معارك كثيرة برية وبحرية كان أشهرها (عين جالوت 658هـ)، كذلك فإن العثمانيين قد واجهوا الزحف الصليبي الذي كاد يدخل في أعماق الغرب والشرق الإسلامي، بعد إسقاطه لغرناطة سنة (897هـ/ 1492م)، وقد زحف الصليبيون فعلًا على تونس والجزائر خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة، ولم يوقف هذا الزحف إلا ظهور القوة العثمانية.

ومن المعروف أن وجود الصليبين قد فرض على الدولة العثمانية أن تكون في حالة استعداد حربي دائم... وحسبنا أن نذكر هنا بعض هذه الحروب؛ حتى لا يتعجل غير الموضوعيين في إصدار الأحكام الظالمة على هذه الدولة.

بالإضافة إلى سهرهم الدائم على الشواطئ الإسلامية في البحر الأبيض والأحمر والمحيط الأطلسي - وهو جهد استمر كثيرا - فقد واجه العثمانيون خلال وجودهم في القرن التاسع عشر الميلادي وحده (الثالث عشر الهجري) حملة نابليون بونابرت على مصر، وحملته على الشام، وحرب الصرب (1804 - 1817م)، والحرب مع روسية (1806 - 1812م)، وثورة اليونان (1812، 1829)، ومعركة نافارين البحرية؛ التي اتحدت فيها إنجلترا وفرنسا وروسيا بروح صليبية (1827م) - ضد الدولة العثمانية، ثم احتلال الجزائر (1830م)، وحملة إبراهيم باشا على الشام، بتشجيع من القوى الصليبية الفرنسية، ثم احتلال بريطانيا لعدن (1839م)، وحرب القرم (1853 - 1856م)، وحرب الجبل الأسود (1862م)، وحرب الصرب الثانية (1881م)، والحرب التركية الروسية (1878م)، واحتلال فرنسا لتونس (1881م) وإنجلترا لمصر (1882م)، والحرب اليونانية (1897م)، واحتلال إيطاليا لليبيا (1911م)، ثم حرب البلقان (1912م)([[152]](#footnote-152)).

وهكذا - من خلال نموذج الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - نستدل على نوعية العلاقة العثمانية الأوروبية، وأسلوب الصراع؛ الذي كان دائم الوجود بين الدولة العثمانية، وبين أوروبا التي لم تنس أن دولة آل عثمان هي التي أوقفت زحف الصليبيين على العالم الإسلامي بعد إسقاطهم الأندلس!!

لقد كان المجتمع الإسلامي في العهد العثماني مجتمعا إسلاميا جهاديا، شأنه شأن المجتمع الإسلامي في العصر المملوكي، وقد تفوق إسلاميا وكاد يسيطر على أوروبا؛ لولا ظهور الصفويين الشيعة؛ الذين حركتهم أوروبا الصليبية، فاشتبكوا مع العثمانيين وأوقفوهم، وبددوا طاقتهم في حروب داخلية!!

وكما خضع المماليك لعلماء الشريعة، وأطلقوا أيديهم، وقبلوا أن يحكم عليهم سلطان العلماء (العز بن عبد السلام) بغرامات وتضحيات كثيرة، كذلك كان العثمانيون يخضعون لعلماء الإسلام والشريعة، ممثلة في المفتين والقضاة والمحتسبين.

وكان المسلمون الخاضعون للدولة العثمانية -كما يقول العلامة الدكتور عمر فروخ - رحمه الله - {{لا يشكون شيئا يحملهم على النقمة؛ فإن الدولة العثمانية كانت دولة مسلمة... وإذا كانت الدولة العثمانية قد مرت في أواخر أيامها بأحوال قاسية؛ فإن تلك الأحوال كانت خارجة على سيطرة الدولة العثمانية، وكانت قسوتها عامة في الترك والعرب؛ وفي المسلمين وغير المسلمين، ثم إن المسلمين كانوا يتحملون هذه الأحوال القاسية؛ لأنهم (أو لأن أسلافهم) كانوا قد تمتعوا بالأمجاد التي كانت للدولة العثمانية في تاريخها الطويل، ثم إن الدولة ليست في المغانم المادية فحسب؛ بل الدولة جو روحي أيضا يعيش فيه الفرد، وتعيش فيه الجماعة على رضا واطمئنان في حالة الأمن، وعلى أمل بالرضا والاطمئنان المقبلين في حالة البأس والشدة([[153]](#footnote-153)).

وقد عاش النصارى كذلك حياة طيبة تحت ظل الشريعة والحكم العثماني، وما شكوا شيئا في الدولة لا في أيام الرخاء ولا في أيام الشدة؛ ففي أيام الرخاء كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق، ثم يزيدون في أحيان كثيرة في الامتيازات على المسلمين، ولقد كان النصارى واليهود في الإمبراطورية العثمانية ملوك الاقتصاد والتجارة، وكان على المسلم أن يقوم بالخدمة العسكرية يقضي فيها السنين الطوال، وربما مات في حملة من الحملات على اليمن أو في معركة من المعارك مع الروس، فإذا أراد المسلم أن يعفى من الخدمة، فكان عليه أن يدفع البدل العسكري (خمسين ليرة عثمانية ذهبا) مرة أو مرتين أو أكثر، يقضي جانبا كبيرا من العمر في تحصيله وجمعه، فيمنعه ذلك كثيرا مما يريد من العلم والزواج، والعمل المنتج، أما غير المسلم فكان معفيا من الخدمة العسكرية([[154]](#footnote-154)) - لأسباب كثيرة أيضا -!!

ولأن الدولة العثمانية كانت -كما ذكرنا- دولة جهاد؛ فقد كان من طبيعة الأشياء أن تكون التنظيمات قائمة في الدولة على مضمون الجهاد في سبيل الله([[155]](#footnote-155))، ولم يكن غريبا أن تكون الصفة الملازمة لاسم السلطان العثماني هي صفة (الغازي)([[156]](#footnote-156))... وكانت الشريعة تحكم مجتمعا جادا لن تتفش فيه صور التحلل والابتذال والانحلال الأخلاقي؛ التي عرفت في بعض المجتمعات.

لقد كانت أوروبا النصرانية بدولها المختلفة تقف في وجه الدولة العثمانية المسلمة، وتحرص على إخراجها من أوروبا الشرقية، واقتطاع أجزائها، وإذا كانت دول أوروبا تختلف فيما بينها، ويتناقض بعضها مع بعض؛ في سبيل امتداد نفوذها، واقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية، وأخذها الخيرات والأسلاب؛ إلا أنها كانت تنسى كل خلافاتها وتتفق في وقوفها في وجه العثمانيين([[157]](#footnote-157)).

وقد حاول السلطان العظيم (عبد الحميد) في مستهل القرن العشرين للميلاد (1293/ 1326هـ) أن يقوم بعدد كبير من الإصلاحات، ورفع شعار (يا مسلمي العالم اتحدوا)، وأقام سكة حديد الحجاز، وحاول تحريك الأمة علميا، وجمع العلماء حوله... لولا أن القوى العالمية وقفت ضده.

ومع ذلك كله، فثمة ملاحظة يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تقويم العثمانيين، بالإضافة إلى الملاحظة الخاصة بطبيعتهم العسكرية؛ نتيجة ظهورهم في عصور هجوم أوروبي على العالم الإسلامي، بعد سقوط الأندلس، واضطرارهم للتصدي للحروب الصليبية، والدفاع عن العالم الإسلامي... هذه الملاحظة (الجديدة) هي أن العثمانيين وإن كانوا قد نجحوا نجاحا رائعا في رفع راية الإسلام عالية في الدنيا، وألقوا مهابته في نفوس العالم؛ بهزائمهم لأوروبا مرارا لثلاثة قرون منذ قيام دولتهم؛ إلا أنهم كانوا هم كذلك يسيرون في طريق الانحطاط كعامة الأمم المسلمة في هذا الزمان، بينما الأمم الأوروبية التي تقابل الأمة التركية في الميدان، والتي عاصرتهم؛ كانت تسير في طريق الرقي المادي والتقدم الفكري، وفي القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري) انقلبت الأحوال، فقد بلغ من إحكام التنظيم العسكري، وتضاعف القوة المادية والمعنوية عند أمم الإفرنج أنها هزمت الأتراك المتخلفين هزيمة بينة لأول مرة في معركة سينت جوثرد([[158]](#footnote-158)).

هكذا كان الموقعان مختلفين، والظرفان مختلفين، ومع ذلك قام العثمانيون بدورهم على خير ما استطاعوا، وقد قدموا صفحة استمرت خمسة قرون دفاعا عن الإسلام وشريعته وحضارته... ولو لم يكن العثمانيون لاستطاعت أوروبا احتلال العالم الإسلامي في وقت مبكر، ولكان مصير كثير من الدول الإسلامية لا يعلمه إلا الله... وما فعلته فرنسا في الجزائر خلال مدة تزيد على مائة وثلاثين عاما دليل على نوعية ذلك المصير الذي كان ينتظر المسلمين، لولا أن قيض الله العثمانيين جزاهم الله خيرا.

\* \* \*

## تاريخنا وحضارتنا... من التفسيرات الإسقاطية

**إلى التوظيف الحضاري**

* بعيدا عن الإسقاطات والتفسيرات التحريفية لتاريخنا... يجب أن نلتفت إلى ضرورة توظيف تاريخنا الحضاري في خدمة واقعنا واستشرافاتنا المستقبلية...

- إننا لن نعيش في (جنة) الماضي غافلين عن المستقبل؛ بل سندرس كل تاريخنا البشري - بإيجابياته وسلبياته -... لنستفيد من تجارب الإيجاب والسلب معا... وهذا هو المنهج القرآني في فقه التاريخ... وكل الأمم الناهضة من حولنا تجعل من تاريخها ذاكرة تستلهمها... فلسنا بدعا في ذلك!!

ومنذ وعي الإنسان معاني التاريخ والحضارة والحكمة (الفلسفية)، وهو يوجه الوقائع التاريخية لخدمة عقائده وأفكاره، ويفسرها تفسيرا يحدد لها إطار مستقبلي في ضوء الثوابت والخلفيات؛ التي ورثها وآمن بها وترسبت في وعيه التاريخي.

- وشيئا فشيئا حاول الإنسان غربلة بعض أفكاره، والوصول إلى قدر من الموضوعية، يتلاءم مع المنطق والعقل، وفي أحيان كثيرة اضطر إلى تفسير أفكاره وعقائده تفسيرا يحاول أن ينسجم مع المنطق، ومع الموروث والمعتقد في نسيج واحد!!

- ومهما وضع اليهود والنصارى من لافتات علمية وموضوعية، فمن المؤكد أنهم قد تأثروا بعقائدهم تأثرا كبيرا ومباشرا في تفسيرهم للتاريخ وتقسيمهم لمراحله.

- وقد بدأ النصارى تاريخهم وتنظيرهم بما بدأت به التوراة، فرجعوا إلى (الجنة) التي عاش فيها آدم وحواء قبل هبوطهما على الأرض، وقسموا التاريخ إلى قسمين رئيسين هما:

- المرحلة التي سبقت خروج آدم من الجنة، والمرحلة التي أعقبت ذلك الخروج!! وبالمثل فإن اليهود قد استخدموا وقائع طردهم من القدس، أساسا لتاريخهم وترتيبهم الزمني للأحداث.

- أما الإغريق فأتوا بفكرة مماثلة، وهي فكرة اضمحلالهم بعد أن كانوا في عصر ذهبي، وقسم أحدهم عصور التاريخ إلى خمسة أقسام هي: الذهبي، والفضي، والبرونزي، وعصر الأبطال، والعصر الحديدي. أما الآباء المسيحيون الأول فقد جعلوا العصر الذهبي قرينا بالعصر الذي عاش فيه الإنسان في الجنة، ثم ما تبعه من وقوع الخطيئة([[159]](#footnote-159))...

- وجاء مؤرخو العصور الوسطى (الأوروبية) فتأثروا بهذه التقسيمات، وصاغوها صياغات أخرى، واعتبروا العصر الوسيط استمرارا للإمبراطورية الرومانية، واعتبر المؤرخ (بلوندوس) (1463م) أن العصور الوسطى حقبة انفصلت فيها شعوب أوروبا الغربية عن روما، ثم جاء المؤرخ الهولندي (كرستوف كيلر) بتقسيم عصور التاريخ إلى أقسامه التقليدية الثلاثة المشبعة بالروح الكنسية؛ وهي التاريخ القديم الذي ينتهي بعصر قسطنطين العظيم، والتاريخ الوسيط الذي ينتهي بسقوط القسطنطينية سنة (1453م)، ثم التاريخ الحديث من سنة (1453م) فصاعدا([[160]](#footnote-160)).

- وكان ظهور {{مارتن لوثر}} عودة جديدة إلى الرؤية المسيحية للتاريخ؛ بل إن حركة الإصلاح الديني بقيادة (كالفن) و(لوثر) أعطت الجهد البشري في تفسير التاريخ تقديرا أقل مما أعطته له الكنيسة في سالف عهدها، ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة الدينية، والمنظمات التابعة لها هي صاحبة المقام الأكبر والأول في مقام البحث التاريخي؛ بل إن التاريخ العالمي صور مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان([[161]](#footnote-161)).

- ومع نهاية العصور الوسطى المسيحية، وبداية عصر الكشوفات الجغرافية، وخروج الأوروبيين في حركتهم التوسعية الاستعمارية، وانتشارهم في البحار وعلى اليابسة، وتعرفهم على الكرة الأرضية، ومحاولتهم السيطرة عليها لحسابهم الخاص - دون نظر إلى الحضارة الإنسانية العامة ومصلحة البشر -... في هذا الوقت نفسه الذي ذهب فيه (ماجلان وكولومبس وفاسكو دي جاما) يكتشفون العالم، وكان هناك آخرون من أمثال (برونوكوبر ينكس وجاليليو وكبلر ونيوتن)؛ يكتشفون خصائص النظام الكوني، وحركة الكواكب، واستطاع كل من (بيكون وديكارت وجون لوك) أن ينظموا مغزى الاكتشافات العالمية في فكر فلسفي مستقيم... في هذا الوقت ظهر مؤرخون يحاولون أن يقدموا تفسيرا اجتماعيا، يتساوق مع الاكتشافات الجغرافية الكونية، وتألقت فكرة (تطور المجتمع) تطورا منتظما، شأنه في ذلك شأن الطبيعة، وكان أبطال هذا التوظيف توظيفا يتساوق مع الاكتشافات الأوروبية هم: (فيكو وهيوم وفولتير وكانط وجودوين وكندورسيه).

- وقد ظهر تأثير هذه الفلسفة الطبيعية - وكذلك رد فعل الفلسفة الاجتماعية على كتابات التاريخ في كتابات المدرسة العقلانية للمؤرخين في القرن الثامن عشر؛ وأهم ما جاءت به هذه المدرسة هو اتجاهها العام نحو توسيع التاريخ، بحيث يتعدى نطاق الكنيسة والدولة ويشمل تاريخ المجتمع والتجارة والصناعة والحضارة في أوسع معانيها([[162]](#footnote-162)).

- ولم تنج فلسفة التاريخ من التوظيف، فهي مثل منهج البحث التاريخي تعرضت منذ نشأتها للتوجيه الفكري والقومي والعقائدي، فالمؤرخون المسيحيون -بدءا من (إيزيبوس) حتى (بوسويه)- كانت لهم فلسفة تاريخية قائمة على المسيحية، وكان (فيكو) يمثل المرحلة الرومانسية في كثير من النواحي، ولا سيما فكرته عن التغيرات التي تطرأ على الروح الاجتماعية، وفكرته عن يد الله في صنع أحداث التاريخ، وكان يرى أن التقدم يتم على شكل دائري حلزوني، وقد قسم مراحل التطور التاريخي إلى ثلاث مراحل رئيسة وهي: الإلهية والبطولية والإنسانية([[163]](#footnote-163)).

أما المدرسة الألمانية وعلى رأسها (هرد، وعمانويل كانط، وفيخته)، فقد ظهر واضحا إيمانها بالعنصر الألماني، وبالواقعية التي يمتاز بها هذا العنصر، وبالحصيلة الديناميكية للدوافع الشخصية، ونتاج العمل والتزاوج بين الظروف الخارجية والروح الداخلية، وقد قال (فيخته) بصراحة في كتابه (رسائل إلى الأمة الألمانية) (سنة 1807م): {{إن الأمل في المستقبل معقود على الشعوب الألمانية، فهذه الشعوب مكونة من عنصر نقي، غير مختلط، له معين لا ينضب من الحياة الروحية ومن القوة}}([[164]](#footnote-164)).

ولئن كانت هناك روابط مشركة باعتبار عوامل التأثير والتأثر بين البلاد الأوروبية ذات التفاعل الحضاري المتقارب، إلا أن التوظيف القومي والوطني والمذهبي كان واضحا في كل هذه المدارس، وحتى عندما جاءت الفلسفة المادية الماركسية، فإنها قامت بتوظيف التاريخ وفلسفته للفكرة الإيديولوجية المسبقة، وأرغمت الحقائق التاريخية على أن تكون في خدمة الطبقة العاملة والصراع الطبقي، وسيادة طبقة البروليتاريا، وسقوط الرأسمالية أمام معاول الشيوعية، كما وظفته لخدمة الحرب على كل الأديان، وإعلاء راية الإلحاد، ثم جاء أونولد توينبي ليقدم تفسيرا أكثر (تفاؤلية) و(لاهوتية)؛ يواجه به التفسير المادي، فكان تاريخه سلاحا في يد الكتلة الغربية الليبرالية واجهت به في أشد ساعات المحنة انتشار الفلسفة المادية الماركسية، التي خضع لها ذات يوم مئات الملايين من البشر.

أما (أزوالد شينجلر) الذي يظنه البعض أكثر حيادا بالنسبة لآرائه في فلسفة التاريخ؛ حيث أعلن (اضمحلال الغرب، وسقوط الحضارة الغربية)، وأظهر تشاؤمه من المستقبل، وذكر أن الحضارة تمر بدورة حلزونية رباعية؛ هي الربيع والصيف والخريف والشتاء، وأكد أن الحضارة الأوروبية تمر الآن بشتائها القاسي!!

- ومع ذلك كان (شبنجلر) أوروبيا مخلصا في الحقيقة، لكن إخلاصه -وهو يوظف فلسفة التاريخ لحضارته- كان مثل توينبي... إنه إخلاص الطبيب الصادق للمريض في مرحلة لا تحتمل الحلول العاطفية!!

وبعد شبنجلر سار فلاسفة آخرون أوروبيون على النهج نفسه في توظيف التاريخ وتفسيره لخدمة الحضارة الأوروبية والرؤية النصرانية أو العلمانية للتاريخ!!

\*\*\*

وهكذا، ومن خلال هذا العرض، يتجلى لنا أنه منذ خمسة قرون - على الأقل - والبحث عن المنهج التاريخي الأصلح لكتابة التاريخ الإنساني وفلسفة التاريخ يحتل من المفكرين والمؤرخين في العالم مكانة عظيمة، وتبذل فيه جهود شاقة رائعة، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا... وبالطبع ليس لنا في هذا المقام أن نتجاهل دور العلامة عبد الرحمن بن خلدون في إيقاظ هذا الوعي التاريخي على المستوى العالمي كله.

ويعد العالم الإسلامي - مع ذلك وللأسف - نشازا في هذا البحث اللاهث، فما زال البحث التاريخي لا يهتم - إلا في القليل - بقضيتي منهج البحث التاريخي وفلسفة التاريخ، فضلا على التوظيف لتجربتنا الحضارية في مراجعة مشكلات الواقع وأعباء المستقبل.

والنظر إلى قائمة الطروحات العلمية التي قدمت في جامعات العالم الإسلامي في أقسام التاريخ والحضارة، بالإضافة إلى بحوث المؤرخين والمفكرين يؤكد هذه الحقيقة!!

لكن القضية بدأت تطرح نفسها علينا بعمق؛ بعد أن بطلت مقولة إقامة السور الحديدي الفكري بيننا وبين العالم الأوروبي؛ لحماية أنفسنا من أفكاره ومناهجه، فضلا على عبثية هذه المقولة في ظل الأساليب الحضارية المعاصرة؛ فإنها أيضا مقولة لا تخدمنا حتى ولو نجحنا في تطبيقها!!

إننا لابد أن نبحث في بنائنا الداخلي، وفي تطوير كياننا، وفي البحث عن وسائل القوة في داخلنا ومخارجنا، وفي فقه سنن الله الكونية والاجتماعية في التطور والبقاء، ولا سبيل لبقائنا في هذا العالم إلا عن هذا الطريق.

إن تشريحا قويا يجب أن نقوم به - بإخلاص وجرأة - لتجربتنا في التاريخ، وإننا يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا في الاعتراف بالحقيقة كما هي، وفي تقويم هذه الحقيقة على ضوء الثوابت الإلهية التي نؤمن بأنها (المطلق)، و(المثل العليا الحضارية) لنا وللإنسانية.

وجدير بالذكر أنه لم يعد ممكنا كتابة التاريخ غير مرتبط بتفسيره، وذلك أن المنهج العلمي لكتابة التاريخ يحكم الوشائج بين قبول الواقعة رواية (نقلا) وقبولها دراية (عقلا)([[165]](#footnote-165)).

وقد أصبح (فقه البيئة) الاجتماعية والنفسية والثقافية المسيطرة من أركان قبول الواقعة، والحكم عليها منذ عصر ابن خلدون، ومهما كان لتفسير التاريخ من كيان مستقل؛ فإن أجزاء كثيرة منه على الأقل - في معطياته الأولى - ستبقى مرتبطة بالوقائع التاريخية الجزئية لا تنفصل عنها...([[166]](#footnote-166)).

إن هذه مسلمة أغفلها المسلمون وبحثت عنها البشرية طويلا!!

وفي ضوء هذا البحث الإنساني الدؤوب عن تفسير إنساني موضوعي للتاريخ؛ يتبدى لنا أنه من حق الشرائح الإنسانية كلها أن تقدم ما لديها وصولا إلى بعض المفاتيح ـ وليس كل المفاتيح ـ لحركة التاريخ والكون.

وفي الوقت نفسه يجب على المسلمين أن يتقدموا - إنصافا لرسالتهم وحضارتها - بجهودهم في مجال الوصول إلى فلسفة كونية وتاريخية أصيلة، تقوم على ركائز التصور الإسلامي الأساسي...

ولعل أهم ما يميز الرؤية الإسلامية للتاريخ ويوجبها؛ أن لها ثوابت تتصل بالقوانين والسنن الكونية التي لا تتغير، وتتصل بالفطرة الإنسانية المركوزة في الإنسان، والتي لا تتغير هي كذلك، وإن اختلفت وسائل التعبير عنها... ويعد تشويه الفطرة اعتداء على (إنسانية الإنسان)...

وأهم فرق بين التصور الإسلامي والتصورات الوضعية التي لا ترى علمية تفسير التاريخ؛ أن الإسلام يؤمن بثوابت فطرية مركوزة في الإنسان لا تتغير... وهؤلاء يرون أن الإنسان يتطور في بنائه الأساسي العضوي والنفسي والقيمي...

ويرى التصور الإسلامي أن الجانب المعرفي والفكري يتطور في الإنسان؛ لكن ذلك أيضا يحتاج إلى ضوابط وعناصر تكمله؛ فثمة معارف ثابتة يجب على الإنسان أن يتلقاها - نقلا - لا عقلا، وهو - بطبيعته ذات الطاقة المحدودة عاجز عن إدراك تفصيلاتها بعقله... وثمة مسلمات في الجانب المعرفي الكوني والاجتماعي يجب التسليم بها...

وبعد ذلك فالمجال مفتوح لعلم العقل في مساحة واسعة تنتظم تسخير الكون، ومجالات العلوم والفنون والآداب، وفقه النفس الإنسانية والطاقات الإنسانية المختلفة، وفي استكشاف عظمة الله من خلال تدبر آياته في الكون والنفس، وبالتالي استخلاص القوانين الطبيعية والاجتماعية.

إن قراءة تاريخنا، وتاريخ الإنسانية بكل معطياته وشرائحه عملية ضرورية لكتابته كتابة موضوعية...

وقراءة التاريخ لا تعني قراءة الجوانب السياسية، وحياة الحكام، وأخبار الوقائع والحروب؛ فتلك قراءة قد استهلكت، وأخذت أكثر من حجمها، وامتدت على حساب غيرها، وأعمتنا عن قراءة تاريخنا وتاريخ الإنسانية الاجتماعي والاقتصادي والثقافي... ومن شأن قراءة عاجزة كهذه إلا تصل بنا إلى اكتشاف السنن الفاعلة والعوامل المتحركة.

- إن تاريخنا ليس فردا في هذا المجال... فمعظم تواريخ العالم - إن لم يكن كلها - يشوبها سلوك معظم حكامها وعسكرييها، أباطرة كانوا أو قياصرة أو أكاسرة أو ملوكا([[167]](#footnote-167)).

- فكيف يصبح هؤلاء محور الدراسة التاريخية والحضارية، مع أنهم يمثلون أكبر جوانب السلب فيها...؟!

- وإن عظمة كثير من الحضارات - وعلى رأسها الحضارة الإسلامية - أنها بقيت مصونة الجوهر، وبالرغم من الفساد الذي يجلبه هؤلاء!!

- وأخيرا... فإننا عندما نتجه - عمليا وبصورة جماعية - للبحث في أساسيات هذا التفسير، فإن علينا أن تعيد قراءة حولياتنا التاريخية، وموسوعاتنا الحضارية، وكتب الفقه والأدب والرجال والطبقات، باذلين معظم الجهد في التعرف على حياتنا الحضارية؛ التي تقوم على قضايا العقيدة والفكر والثقافة والعلم - أولا - وعلى النشاط الاجتماعي - ثانيا - والنشاط السياسي والعسكري - ثالثا!!!

- ومن الواجب أن نصهر كل هذه الجوانب أو العناصر في بوتقة واحدة؛ لأن الفعل الحضاري يتأثر بالبيئة كلها، مراعين - في الوقت نفسه - النسبة المحددة لكل نشاط، وأثره في الحضارة، ومراعين - أيضا - ترتيب العناصر وفق أولوياتها والنسب المحددة لها.

إن المنهج الصحيح للتعرف على المجتمع الإسلامي، يقتضى التعرف على الأسس الفكرية، والضوابط الأخلاقية، والنظم المالية والقضائية والتجارية والسياسية، وأهم المؤسسات وعلى رأسها المسجد، ودور العلم ومقرراتها ومناهجها والقيم الموجهة لها، ومقاصدها التربوية... ومدى فاعلية كل ذلك في حركة الحضارة.

كما يقتضي رصد حركة أو سلوك الشعب في الأسواق، وفي الزراعة والتجارة والصناعة، وفي حركة الجهاد المنظم، أو التطوعي (المطوعة والمرابطين)... ويقتضى أيضا مراقبة نوع حياتها في المواسم المختلفة، عبادية أو ترويحية عبادية، مثل حياتهم في رمضان، والتزامهم بصيامه، وقيام ليله، ومثل سلوكهم في موسم الحج إن حجوا، أو تفاعلهم معه إذا لم يحجوا، وسلوكهم في الأعياد الإسلامية: يوم الجمعة، وعيد الفطر، وعيد الأضحى... ومناسبات الزواج والولادة (العقيقة)، والأضاحي... وغيرها.

\* \* \*

**الفهرس**

[إهداء 4](#_Toc464374009)

[مقدمة 5](#_Toc464374010)

[نهر التاريخ... رؤية إسلامية 6](#_Toc464374011)

[تفسير التاريخ: مطلب إنساني تخلف فيه المسلمون 11](#_Toc464374012)

[توظيف المنهج التاريخي وفلسفة التاريخ 12](#_Toc464374013)

[أساسيات الرؤية الإسلامية للتاريخ 14](#_Toc464374014)

[تاريخنا الإسلامي والطبيعة البشرية 21](#_Toc464374015)

[تاريخ ما بعد الراشدين والتحليل النقدي 23](#_Toc464374016)

[نسيج التاريخ الإسلامي ومنظومة الحضارة الإسلامية 26](#_Toc464374017)

[الفعالية الحضارية الإسلامية بين التنظير والتطبيق 32](#_Toc464374018)

[المجتمع الإسلامي ودوره الحضاري عبر التاريخ 38](#_Toc464374019)

[النسبة بين الأمة والدولة في حضارتنا 38](#_Toc464374020)

[أخطاء في الرصد التاريخي والتقويم 42](#_Toc464374021)

[العلماء العاملون هم قادة حضارتنا 46](#_Toc464374022)

[العلم والعمل دعامتا العمل الإسلامي 47](#_Toc464374023)

[الشريعة الإسلامية ومكانتها 52](#_Toc464374024)

[في تاريخ المجتمع الإسلامي 52](#_Toc464374025)

[المجتمع الإسلامي في خلافتي الأمويين والعباسيين 60](#_Toc464374026)

[الأمة في خدمة الشريعة (نموذج) 66](#_Toc464374027)

[نماذج لخلفاء صالحين 67](#_Toc464374028)

[نموذج لدور المرأة الحضاري 69](#_Toc464374029)

[متى نكف عن ظلم تاريخنا؟!! 70](#_Toc464374030)

[الحياة الإسلامية في المغرب وإفريقية 72](#_Toc464374031)

[الحياة الدينية والتربية والتعليم في المغرب العربي (الإسلامي) 75](#_Toc464374032)

[الحياة الدينية والعلمية في إفريقية السوداء 76](#_Toc464374033)

[المجتمع الإسلامي في العصرين المملوكي والتركي 78](#_Toc464374034)

[تاريخنا وحضارتنا... من التفسيرات الإسقاطية 85](#_Toc464374035)

1. ) التصور المسيحي يرى أن المسيح عليه السلام قبل أن يقتل طواعية من أجل التكفير عن خطيئة أبينا آدم وخطايا أبنائه، وكان يستطيع -كابن لله- أن ينقذ نفسه، أي أنه -بإيجاز- انتحر، والإسلام يرفض عملية القتل أصلًا، ويرى أن الله أنقذه من أيدي اليهود، ورفعه إليه، كما أنه برفض الانتحار!! [↑](#footnote-ref-1)
2. ) و.هـ.وولش: مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة أحمد حمدي، مؤسسة سجل العرب، مصر 1962م،ص: 166. [↑](#footnote-ref-2)
3. ) وولش: مدخل لفلسفة التاريخ 167. [↑](#footnote-ref-3)
4. ) إدوارد كار: ما هو التاريخ، ترجمة أحمد حمدي، نشر مؤسسة سجل العرب 1962، ص: 144. [↑](#footnote-ref-4)
5. ) إدوارد كار: المرجع السابق، ص143. [↑](#footnote-ref-5)
6. ) فلسفة التاريخ: ترجمة عادل زعيتر، نشر دار المعارف بمصر، 1954م، ص: 57. [↑](#footnote-ref-6)
7. )عبد الرحمن بدوي: شبنجلر: 23، نشر مكتبة النهضة بمصر، 1941م. [↑](#footnote-ref-7)
8. ) هاري المربارنز، ترجمة محمد عبد الرحمن برج/ تاريخ الكتابة التاريخية 1/70، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1984م. [↑](#footnote-ref-8)
9. ) المرجع السابق، ص: 146. [↑](#footnote-ref-9)
10. )المرجع السابق، ص175، 176. [↑](#footnote-ref-10)
11. المرجع السابق، ص: 176. [↑](#footnote-ref-11)
12. ) المرجع السابق، ص:270. [↑](#footnote-ref-12)
13. ) الشيخ علي الطنطاوي: قصص من التاريخ ( المقدمة)، طبع بيروت. [↑](#footnote-ref-13)
14. ) على الطنطاوي: فكر ومباحث، ص: 104-105، طبعة 2 (1408هـ) بيروت. [↑](#footnote-ref-14)
15. ) الخشني: قضاة قرطبة، ص: 149، بيروت. [↑](#footnote-ref-15)
16. ) علي الطنطاوي: فكر ومباحث،2/ 105، 106، طبعة 2(1408هـ) بيروت. [↑](#footnote-ref-16)
17. ) الخشني: قضاة قرطبة، ص:57. [↑](#footnote-ref-17)
18. ) د. محمود الطناحي: مقدمة تحقيق منال الطالب في شرح طوال الغرائب لابن الأثير، طبع جامعة أم القرى1983م، ص16-18بتصرف. [↑](#footnote-ref-18)
19. ) نقلا عن: ناجي الطنطاوي: كلمات نافعة ، ص: 221، دار المنارة، جدة، سنة 1408هـ. [↑](#footnote-ref-19)
20. ) المرجع السابق، ص229 بتصرف. [↑](#footnote-ref-20)
21. ) المرجع السابق،ص:241،242. [↑](#footnote-ref-21)
22. ) المرجع السابق، ص: 206. [↑](#footnote-ref-22)
23. ) محمد ياسين مظهر الصديقي: قضايا كتابة التاريخ الإسلامي وحلولها، نشر الجامعة السلفية بنارس- الهند - جمادى الآخرة (1409هـ)، انظر محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص:481، طبع دار طيبة بالرياض، الأولى (1406هـ)، وكل المسلمين يحبون آل البيت؛ لكن المراد بالميل هنا الاقتراب من ظلم من اختلفوا مع آل البيت وليس مجرد تخطئتهم. [↑](#footnote-ref-23)
24. ) من المذاهب الفقهية التي انتشرت: الظاهرية ومذهب الأوزاعي، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، ويحيى بن عيينة، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب... وغيرهم بالإضافة إلى أصحاب المذاهب الأربعة. [↑](#footnote-ref-24)
25. ) انظر: كتابه (وجهة الإسلام) لكن (جب) تجاهل في هذا الاتهام أمرين:

    أولهما: أن الذرية التي لا تعود إلى التركيب من سمات كل عصور التخلف وليست خاصة بجنس دون جنس.

    وثانيهما: أن المسلمين أفرزوا مناهج علمية واكتشافات وقوانين وكليات وعلوما ونظريات رائعة فكرية وتطبيقية في عصور ازدهارهم. [↑](#footnote-ref-25)
26. ) عبد الرحمن بدوي: شبنجلر، ص: 40. [↑](#footnote-ref-26)
27. ) المرجع السابق: ص:41، 42. [↑](#footnote-ref-27)
28. ) انظر: عماد الدين خليل: المدخل إلى إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص: 11، وما بعدها، الطبعة الثالثة (1412هـ- 1992م). [↑](#footnote-ref-28)
29. ) د. حسين مؤنس: عالم الإسلام، ص: 25، 26، طبع دار المعارف بمصر، طبعة أولى. [↑](#footnote-ref-29)
30. )جاك ونديو دوفاير: الدولة، ترجمة: سموحي فوق العادة، منشورات عويدات بباريس بيروت، ص6- 7 (بتصرف). [↑](#footnote-ref-30)
31. ) د. حسين مؤنس: عالم الإسلام، ص: 209. [↑](#footnote-ref-31)
32. المرجع السابق: ص211. [↑](#footnote-ref-32)
33. ) المرجع السابق: ص212. [↑](#footnote-ref-33)
34. ) المرجع السابق: ص214. [↑](#footnote-ref-34)
35. ) ول ديورانت: قصة الحضارة 14: 108، طبع مصر. [↑](#footnote-ref-35)
36. ) المرجع السابق: 14/ 109-110. [↑](#footnote-ref-36)
37. ) ياقوت: معجم الأدباء ، ص13، ص101، (ترجمة: ياقوت)، طبع بيروت. [↑](#footnote-ref-37)
38. ) ياقوت: معجم الأدباء، ص13، ص99- 100، (ترجمة: ياقوت)، طبع بيروت. [↑](#footnote-ref-38)
39. ) د. حسين مؤنس: عالم الإسلام، ص214- 215. [↑](#footnote-ref-39)
40. )انظر مادة (( أمر)) في لسان العرب. [↑](#footnote-ref-40)
41. ) انظر جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر (نماذج من هؤلاء العلماء المجاهدين في العصر الحديث). [↑](#footnote-ref-41)
42. عبد اللطيف شرارة: الفكر التاريخي في الأندلس، ص: 69، 70 ( بتصرف) نشر دار الأندلس، بيروت. [↑](#footnote-ref-42)
43. المرجع السابق، ص: 70، 71 بتصرف. [↑](#footnote-ref-43)
44. المرجع السابق، ص: 36. [↑](#footnote-ref-44)
45. المرجع السابق، ص: 37. [↑](#footnote-ref-45)
46. المكان السابق. [↑](#footnote-ref-46)
47. محمد فريد وجدي: مهمة الإسلام في العالم، ص: 195، طبع الأزهر. [↑](#footnote-ref-47)
48. نقلا عن المرجع السابق، ص: 196. [↑](#footnote-ref-48)
49. ول ديورانت: قصة الحضارة 13: 116. [↑](#footnote-ref-49)
50. المرجع السابق 13: 133. [↑](#footnote-ref-50)
51. المرجع السابق 13: 105، وانظر موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، ص: 544، ط لبنان. [↑](#footnote-ref-51)
52. انظر: مقدمة كتاب فلسفة التاريخ لعادل زعيتر، دار المعارف - مصر، 1945م. [↑](#footnote-ref-52)
53. حسن الترابي: تجديد الفكر الإسلامي، ص: 58، الدار السعودية للنشر، ط 2/ 1407هـ بتصرف. [↑](#footnote-ref-53)
54. سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، ص: 52، دار الشروق، ط 8/ 1988م - مصر. [↑](#footnote-ref-54)
55. المرجع السابق، ص: 52. [↑](#footnote-ref-55)
56. محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: 145، نشر المجموعة الإسلامية، السعودية، ط 1. [↑](#footnote-ref-56)
57. المرجع السابق، ص: 146. [↑](#footnote-ref-57)
58. اسم كتاب للمؤرخ الكبير لسان الدين بن الخطيب. [↑](#footnote-ref-58)
59. عماد الدين خليل: ملاحظات في تاريخ المجتمع الإسلامي، ص: 8، نشر مكتبة الثورة، القاهرة. [↑](#footnote-ref-59)
60. المرجع السابق، ص: 5، بتصرف. [↑](#footnote-ref-60)
61. محمد عبد الهادي أبو ريدة: روح الحضارة الإسلامية ومميزاتها، دراسة نشرت ضمن أعمال قسم الثقافة الإسلامية في جامعة الإمام (1403هـ)، بتصرف. [↑](#footnote-ref-61)
62. الموضع السابق. [↑](#footnote-ref-62)
63. د. محمد أبو ريدة: المكان السابق. [↑](#footnote-ref-63)
64. انظر في الحديث عن الخلاف بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - العواصم من القواصم ـ لأبي بكر بن العربي، بتحقيق محب الدين الخطيب، وانظر في تحقيق الفتن في المغرب: ابن عذارى: البيان المغرب، بتحقيق إحسان عبا س، وغيرهما من المصادر. [↑](#footnote-ref-64)
65. سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص15، طبع دار الشروق، ط (1400هـ/ 1980م). [↑](#footnote-ref-65)
66. رواه الشيخان، والترمذي، والنسائي. [↑](#footnote-ref-66)
67. العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 272. [↑](#footnote-ref-67)
68. المرجع السابق. [↑](#footnote-ref-68)
69. طارق البشرى: ندوة التراث وتحديات العصر، القاهرة (1984م) (مركز دراسات الوحدة العربية). [↑](#footnote-ref-69)
70. انظر بتصرف كتابات محمد عابد الجابري: في {{المسألة الثقافية}}، ص 67، وغيرها، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، وانظر الجابري {{الدين والدولة وتطبيق الشريعة}}، ص62، ومواطن كثيرة، بيروت 1996م. [↑](#footnote-ref-70)
71. جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص 48، دار العلم للملايين، ط 3، 1979م. [↑](#footnote-ref-71)
72. كنموذج للتحليل الموضوعي المنصف - غير الإسقاطي - نقدم هذا النص من كلام المفكر الإسلامي والمصلح الإمام بديع الزمان سعيد النورسي في معالجة الصراع بين الإمام علي ومعاوية - رضي الله عنهما - في صفين، يقول الإمام النورسي: أما ما وقع من حرب بين الإمام علي رضي الله عنه وسيدنا معاوية رضي الله عنه وأنصاره في واقعة {{صفين}}؛ فهي حرب بين الخلافة والسلطنة ( الملك الدنيوي)؛ أي أن الإمام عليا رضي الله عنه (قد اتخذ أحكام الدين وحقائق الإسلام والآخرة أساسا، فكان يضحي بقسم من قوانين الحكم والسلطنة، وما تقتضيه السياسة من أمور فيها إجحاف في سبيل الحقائق والأحكام؛ أما سيدنا معاوية ومن معه، فقد التزموا ( الرخصة الشرعية)، وتركوا الأخذ بالعزيمة؛ لأجل إسناد الحياة الاجتماعية الإسلامية بسياسات الحكم والدولة، فعدوا أنفسهم مضطرين في الأخذ بهذا المسلك في عالم السياسة، لذا رجحوا الرخصة على العزيمة فوقعوا في الخطأ (انظر النورسي: المكتوبات، ص: 68، نشر سوزلر - القاهرة ).

    (أي أننا مفهم من كلام النورسي أن الخلاف يمثل وجهتي نظر، وأن للمصيب أجرين وهو الإمام علي وأتباعه، وللمخطئ أجرا وهو معاوية وأتباعه (رضي الله عن الجميع). [↑](#footnote-ref-72)
73. ول ديورانت: قصة الحضارة 13/81، طبع مصر، الطبعة الأولى. [↑](#footnote-ref-73)
74. المرجع السابق 13/83. [↑](#footnote-ref-74)
75. المرجع السابق 13/83. [↑](#footnote-ref-75)
76. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: 436، وما بعدها - بتصرف - طبع الإسكندرية، (1982م). [↑](#footnote-ref-76)
77. المرجع السابق، ص: 421. [↑](#footnote-ref-77)
78. المرجع السابق، ص: 423. [↑](#footnote-ref-78)
79. أبو الحسن بن عبد الله النباهي الأندلسي: تاريخ قضاة الأندلس، ص: 24، طبع دار الآفاق، بيروت - الطبعة الخامسة ( 1403هـ). [↑](#footnote-ref-79)
80. ول ديورانت، قصة الحضارة 13/150. [↑](#footnote-ref-80)
81. ول ديورانت: قصة الحضارة 13/150. [↑](#footnote-ref-81)
82. انظر المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 73 وما بعدها، وفي القديمة ص: 205، طبع مكتبة مدبولي - مصر، ففيه تفصيل لهذه الحركة العلمية النشطة. [↑](#footnote-ref-82)
83. موضى الرميح: الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور وسياسته الداخلية والخارجية، رسالة ماجستير بكلية الآداب للبنات بالدمام (1409هـ)، (الخاتمة)، وانظر الذهبي: سيرة أعلام النبلاء 13/302، وما بعدها، مطبعة الرسالة - بيروت. [↑](#footnote-ref-83)
84. انظر: ابن أبي أصبيعة: طبقات الأطباء 1/25، طبع بيروت، وانظر آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة دكتور عبد الهادي أبو ريدة 1/296. [↑](#footnote-ref-84)
85. آدم متز: المرجع السابق 1/297. [↑](#footnote-ref-85)
86. ول ديورانت: قصة الحضارة 13/170. [↑](#footnote-ref-86)
87. المكان السابق. [↑](#footnote-ref-87)
88. البداية والنهاية: حوادث سنة (202هـ). [↑](#footnote-ref-88)
89. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (حوادث سنة 204هـ). [↑](#footnote-ref-89)
90. الطبري: المكان السابق، ابن كثير: البداية والنهاية، (حوادث سنة 202هـ). [↑](#footnote-ref-90)
91. الطبري: حوادث سنة ( 201هـ )، وما بعدها. [↑](#footnote-ref-91)
92. ابن القلانس: ذيل تاريخ دمشق، ص: 126، طبعة بيروت. [↑](#footnote-ref-92)
93. ابن كثير: البداية والنهاية 12/146، دار صادر بيروت. [↑](#footnote-ref-93)
94. محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد، ص: 16، دار النفائس - بيروت، ط 1، 1410هـ. [↑](#footnote-ref-94)
95. ابن كثير: البداية والنهاية 12/111. [↑](#footnote-ref-95)
96. محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد، ص: 18. [↑](#footnote-ref-96)
97. المرجع السابق، ص: 56. [↑](#footnote-ref-97)
98. المرجع السابق، ص: 60، 61. [↑](#footnote-ref-98)
99. عز الدين أبو الحسن بن الأثير: الكامل، ص: 535، طبعة دار صادر ـ بيروت، وانظر: محمد حسين شندب: المرجع السابق، ص: 85، 86. [↑](#footnote-ref-99)
100. ابن الأثير: المكان السابق، ص: 535، والمرجع السابق، ص 187. [↑](#footnote-ref-100)
101. ابن الأثير: الكامل 10/536، وانظر: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك 8/294، حيدر آباد - الهند، سنة 1358هـ. [↑](#footnote-ref-101)
102. الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، قسم تراجم النساء، بتحقق سكينة الشهابي، ص: 16. [↑](#footnote-ref-102)
103. المرجع السابق، ص: 31. [↑](#footnote-ref-103)
104. المرجع السابق، ص: 593، ويلاحظ أنهن من عصور مختلفة، تبدأ من العصور الأولى للإسلام. [↑](#footnote-ref-104)
105. ول ديورانت: قصة الحضارة 13/170، وما بعدها، وقد ذكر الذهبي أن أحد علماء الحديث كان يجلس أمامه أكثر من ثمانمائة طالب، سير أعلام النبلاء 13/302، وما بعدها. [↑](#footnote-ref-105)
106. المصدر السابق. [↑](#footnote-ref-106)
107. د. محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ، ص: 25، 26، ط / 1984م، القاهرة. [↑](#footnote-ref-107)
108. ول ديورانت: قصة الحضارة 13/170، وما بعدها. [↑](#footnote-ref-108)
109. ابن عذاري: البيان المغرب 1/102، بتحقيق كولان وبروفنسال - بيروت. [↑](#footnote-ref-109)
110. المصدر السابق 1/196. [↑](#footnote-ref-110)
111. أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص: 188، طبع الإسكندرية. [↑](#footnote-ref-111)
112. المرجع السابق. [↑](#footnote-ref-112)
113. ابن عذاري: البيان المغرب 1/156. [↑](#footnote-ref-113)
114. أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب الأندلس، ص: 188، 189. [↑](#footnote-ref-114)
115. د. عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية، ص 66، ط دار الغرب (1988م)، وانظر إبراهيم الجمل: الإمام عبد الله بن ياسين، ص: 61، دار الإصلاح بالدمام. [↑](#footnote-ref-115)
116. د. عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص: 74. [↑](#footnote-ref-116)
117. المرجع السابق، ص: 126 - 147، وكل هذه القبائل في السودان الغربي (غرب إفريقية)، وقد سيطر الماندنجو على نهر النيجر والأماكن المطلة عليه، وأقاموا كيانات سياسية. [↑](#footnote-ref-117)
118. ابن عذاري: البيان المغرب 4/7 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-118)
119. عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ المغرب 1/114، نشر مكتبة السلام بالدار البيضاء. [↑](#footnote-ref-119)
120. ابن عذاري: البيان المغرب 4/127، وما بعدها ( بتصرف). [↑](#footnote-ref-120)
121. دكتور/ أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي 4/153، وما بعدها، طبع دار النهضة العربية. مصر. [↑](#footnote-ref-121)
122. توفيق المدني: هذه هي الجزائر، ص: 81، كتالوج بجاية، ص: 58. [↑](#footnote-ref-122)
123. عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب العربي، ص 71، 72، طبع تونس. [↑](#footnote-ref-123)
124. المرجع السابق، ص: 72. [↑](#footnote-ref-124)
125. كتالوج بجاية، ص: 67، نشر الجزائر بإشراف الدكتور/ بوريبة، عميد كلية الآداب الأسبق بالجزائر. [↑](#footnote-ref-125)
126. ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص: 89، حاشية، طبع نهضة مصر. [↑](#footnote-ref-126)
127. الحلة السيراء 2/381، بتحقيق: حسين مؤنس، طبع مصر. [↑](#footnote-ref-127)
128. ابن خلدون: المقدمة 3/1022، بتحقيق: علي عبد الواحد وافي، طبع مصر. [↑](#footnote-ref-128)
129. أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية، ص: 35، ط 1، الزهراء للإعلام العربي (1407هـ) مصر. [↑](#footnote-ref-129)
130. المرجع السابق. [↑](#footnote-ref-130)
131. أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية، ص: 72، 73. [↑](#footnote-ref-131)
132. المرجع السابق، ص: 76. [↑](#footnote-ref-132)
133. ول ديورانت: قصة الحضارة 26 / 52، 53، 54. [↑](#footnote-ref-133)
134. المرجع السابق 25/ 74، 75. [↑](#footnote-ref-134)
135. المكان السابق. [↑](#footnote-ref-135)
136. المكان السابق. [↑](#footnote-ref-136)
137. حنفي خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير (1943م) جامعة القاهرة، ص: 121. [↑](#footnote-ref-137)
138. شريفة المنديل: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الثانية، رسالة ماجستير ـ-كلية الآداب للبنات في الرياض (1409هـ) ص: 117. [↑](#footnote-ref-138)
139. المرجع السابق، ص: 120. [↑](#footnote-ref-139)
140. ابن إياس محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور 2/46، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب (1403هـ). [↑](#footnote-ref-140)
141. المصدر السابق 2/39 - 40، وتنظر: شريفة المنديل: مرجع سابق، ص: 125. [↑](#footnote-ref-141)
142. المرجعين السابقين. [↑](#footnote-ref-142)
143. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص: 126. [↑](#footnote-ref-143)
144. المقريزي: السلوك 4/2، ص: 1021، نقلا عن شريفة المنديل: مرجع سابق، ص: 127. [↑](#footnote-ref-144)
145. ابن إياس المصدر السابق 2/207، وشريفة المنديل، ص: 130. [↑](#footnote-ref-145)
146. شريفة المنديل: مرجع سابق، ص 131. [↑](#footnote-ref-146)
147. المرجع السابق، ص: 138، 139. [↑](#footnote-ref-147)
148. المكان السابق. [↑](#footnote-ref-148)
149. إسماعيل ياغي، ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر 1/151 ،152، ط دار المريخ - الرياض ( 1414هـ). [↑](#footnote-ref-149)
150. من المعروف شرعا أن بناء المساجد على القبور مخالف للهدى النبوي، ويجب الإقلاع عنه. [↑](#footnote-ref-150)
151. بسام العسلي: الفاتح القائد، ص: 11، 12، دار النفائس، ط - 1406هـ). [↑](#footnote-ref-151)
152. عمر فروخ: تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه، دار الباحث بيروت، ص: 280، 281، بتصرف. [↑](#footnote-ref-152)
153. عمر فروخ: مرجع سابق، ص: 282. [↑](#footnote-ref-153)
154. المرجع السابق. [↑](#footnote-ref-154)
155. بسام العسلي: سليمان القانوني، ص: 8، دار النفائس، بيروت، ط / 1، ( 1406هـ). [↑](#footnote-ref-155)
156. المرجع السابق، ص: 7. [↑](#footnote-ref-156)
157. إسماعيل ياغي، ومحمود شاكر: مرجع سابق، ص: 153. [↑](#footnote-ref-157)
158. أبو الأعلى المودوي: نحن والحضارة الغربية، ص: 110، ط مؤسسة الرسالة - بيروت، ويطلق على المعركة (سان جوتار) في الترجمة العربية. [↑](#footnote-ref-158)
159. هاري المربانز: تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمن برج 1/32، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة (1984م). [↑](#footnote-ref-159)
160. المرجع السابق 1/33. [↑](#footnote-ref-160)
161. المرجع السابق ص: 175 - 176. [↑](#footnote-ref-161)
162. المرجع السابق 1/210 - 212 بتصرف. [↑](#footnote-ref-162)
163. المرجع السابق/ ص 266، 267، 268، بتصرف. [↑](#footnote-ref-163)
164. المكان السابق. [↑](#footnote-ref-164)
165. يضرب الدكتور الجابري مثلا يستدل على استحالة إخضاع القرآن للدراسة التأويلية التطويرية لثبوت نسبته لله بخلاف غيره من الكتب؛ ذلك أن الصحابة المتقاتلين (جميعا) في صفين أجمعوا على الخضوع للمصحف الذي رفعه أنصار معاوية، فنسبة القرآن لله لا يرقى إليها شك. [↑](#footnote-ref-165)
166. لكل عصر مناخه (أخلاقياته) وعاداته السائدة، فجيل الصحابة (رضوان الله عليهم) لا يمكن أن يتواطئوا على نص للرسول (عليه الصلاة والسلام)، وهم الذين كانوا يبيعون الدنيا من أجل الدفاع عن دين الله، وهم يعلمون أن النار مصير من يكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم (!!). [↑](#footnote-ref-166)
167. ومع قولنا هذا فنحن لا نسلم بالمقولات الشائعة عن كثير من حكام الخلافات والدول الإسلامية، وندعو إلى دراستهم دراسة موضوعية منصفة... وسوف تكشف جديدا وعجيبا!!! [↑](#footnote-ref-167)